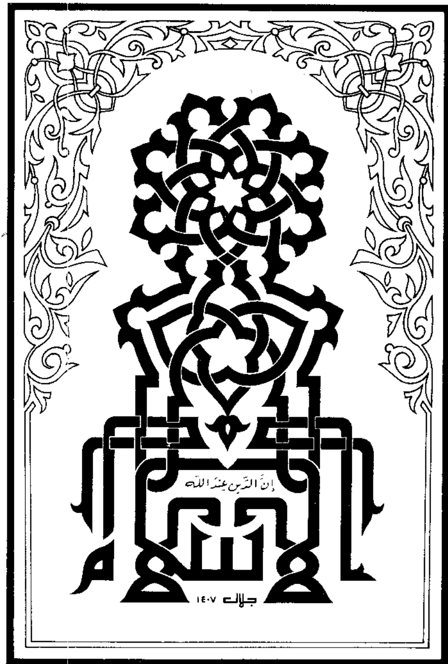


الإسلام

وعلاقته بالشّرائع الأخرى

بقلم الأستاذ

عثمان بن جمعة ضميريّة

الطّبعة الأولى

١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

الطبعة الاولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

الناشــر



إن الدين
عند الله الاسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله وكفىٰ ، وسلامٌ على عباده الذين اصطفىٰ ، وبعد :

فهذان بحثان سبق نشرهما في «مجلة البحوث الإسلامية» التي تصدرها هيئة كبار العلماء ، في الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والإرشاد ، بالرياض ، في العددين السادس عشر والحادي والعشرين ، وذلك تلبية لرغبة كريمة من سعادة رئيس تحرير المجلة فضيلة الشيخ الدكتور / محمد بن سعد الشويعر ، في أن أساهم في الكتابة فيها مشاركة للعاملين المخلصين في المجلة ، برئاسة سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز ، الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والإرشاد ، أثابهم الله جميعاً وبارك في جهودهم .

وهما في أصلهما دراسة تمهيدية بين يدي بحث عن «الحوار الإسلامي المسيحي» أسأل الله تعالى أن يوفق لإتمامه ، كما أسأله أن ينفع بهذه الصفحات التي يجدها القارىء الكريم بين يديه ، وأن يجزي ناشرها خيراً . والله الموفق .

الطائف ١٤/ ٧/ ١٤١٠هـ .

عثمان بن جمعة ضميرية

إن الدين
عنـد الله الاسـلام

الحمد لله الذي خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ، أحمده كما ينبغي لكرم وجهه وعز سلطانه ، وأستعينه استعانة من لا حول ولا قوة إلا به ، وأستهديه بهداه الذي لا يضل من أنعم به عليه ، وأستغفره **لما أزلفت** وأخرت استغفار من يقر بعبوديته ، ويعلم أنه لا يغفر له ذنبه ولا ينجيه منه إلا هو.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، بعثه الله والناس صنفان :

أحدهما : أهل كتاب ، بدّلوا من أحكامه ، وكفروا بالله ، فافتعلوا كذباً صاغوه بألسنتهم ، فخلطوه بحقّ الله الذي أُنْزل إليهم.

فذكر الله لنبيه ﷺ من كفرهم ، فقال ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾(1) .

وصنف : كفروا بالله ، فابتدعوا ما لم يأذن به الله ، ونصبوا بأيديهم حجارةً وخُشُباً وصوراً استحسنوها ، **ونبزوا** أسماءً افتعلوها ، ودعَوْها آلهة عبدوها . . . فأولئك العرب .

وسلكت طائفة من العجم سبيلهم في هذا ، وفي عبادة ما استحسنوا من حُوتٍ ودابّةٍ ونار وغيره ، فذكر الله لنبيه ﷺ جواباً من جواب بعض

---

(1) سورة آل عمران ، آية [٧٨] .

مَنْ عَبَد غيره من هذا الصنف ، فحكى جلّ ثناؤه عنهم قولهم ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾[1] .

فلما بلغ الكتاب أجله ، فحقّ قضاء الله تعالى بإظهار دينه الذي ارتضى ، فتح سبحانه أبواب سماواته برحمته ، فكان خيرتُه المصطفى لِوَحْيِهِ ، المنتخبُ لرسالته ، المفضّل على جميع خلقه ، محمداً عبده ورسوله ، الذي امتنّ الله علينا ببعثته[2] ، فقال ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[3] ، فصلى الله تعالى عليه وسلم ، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين ، وبعد :

الحاجة إلى الرسالة :

فقد كانت مِنَّة عظيمة ، تلك التي امتنَّها الله على البشرية ، عندما جعل هذا الإنسان أكرم مخلوقاته ، وزوّده بكل المواهب والملكات التي تساعده على عمارة الأرض ، وفق منهج الله وشريعته ، ليقوم بأعباء وظيفة الخلافة فيها ، وتكفّل ــ سبحانه ــ باحتياجاته كلها ، ورسم له منهجاً صالحاً لحياته ، يتفق وفطرته التي فطره الله عليها ، من الإيمان بخالقه ومعبوده ومعرفته ــ سبحانه ــ بإلٰهيته وأسمائه وصفاته وأفعاله ، ومن المحال أن تستقل العقول بمعرفة ذلك وإدراكه على وجه التفصيل ، وما كان لهذا الإنسان أن يستقلّ بوضع منهج متكامل لحياته ؛ لما جُبِل عليه من عجز ونقص وضعف ، فاقتضت رحمة الله العزيز الرحيم : أن يبعث الرسلَ ، به معرّفين ، وإليه داعين ، ولمن أجابهم مبشرين ، ولمن خالفهم

---

(١) سورة الزخرف ، آية [٢٣] .

(٢) اقتباس من افتتاحية الإمام الشافعي ــ رحمه الله ــ لكتابه : الرسالة ، ص ٧ ــ ١٣ .

(٣) سورة التوبة ، آية [١٢٨] .

محذِّرين . فكانت هداية الله تعالى ورسالاته ضرورةً مُلحَّةً وحاجة بشرية ، لا غنى عنها ، ولا استقامة لحياة الناس بدونها .

وقد تكفّل الله سبحانه وتعالى ــ رحمةً منه وفضلاً ــ بإرسال الرسل وإنزال الكتب والشرائع ، لتستقيم حياة الناس ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[1] .

فكان ذلك الموكبُ الكريم من الرسل ، صلوات الله عليهم وسلامه ، هداة البشرية من لدن آدم ونوح إلى أن خُتموا بمحمد ﷺ وقد جاؤوا كلهم من عند الله تعالى بدين واحد هو الإسلام .

الإسلام بمعناه العام :

والإسلام ، بمعناه العام ، هو إسلام الوجه لله تعالى ، بمعنى التذلل لطاعته والإذعان لأمره والخضوع الكامل له بالجوارح ظاهراً وباطناً والخلوص من الشرك ، بكل صوره وأشكاله ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2] .

هو دين جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام :

وقد حكى الله تعالى في القرآن الكريم هذه الحقيقة ، فأخبر في غير موضع من كتابه : أن الإسلام هو دين جميع الأنبياء والمرسلين من أولهم إلى آخرهم ، وهو دين من اتبعهم من الأمم السابقة[3] .

(١) سورة الحديد ، آية [٢٥] .

(٢) سورة البقرة ، آية [١١٢] .

(٣) انظر تفسير الإمام الطبري ١٤/٢٥ ــ ١٥ ، تفسير ابن كثير ١٦٧/٢ ، ١٩٩ ، ٤٢٦ ، النبوات : لشيخ الإسلام ابن تيمية ٨٧ ، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، له ٥/١ و١١ ، ٣٢/٢ ــ ٣٥ ، الإيمان له أيضاً ٢٤٦ وما بعدها ، شرح العقيدة الطحاوية ٤٦٢ ، تحقيق أحمد شاكر ، مدارج السالكين : لابن القيم ٤٧٥/٣ و٤٧٦ ، تثبيت دلائل النبوة : للقاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني ، ١٠٨/١ ، خصائص التصور الإسلامي : لسيد قطب ٢١٤ ــ ٢١٦ .

فقال الله تعالى عن نوح عليه السلام ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾[1] .

وتلك هي دعوة أبي الأنبياء ، إبراهيم عليه السلام ، دعوة الإسلام الخالص الصريح ، لا يرغب عنها وينصرف إلا ظالم لنفسه ، سفيه عليها ، مستهتر بها ﴿ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[2] .

ولذلك يندد الله تعالى بمزاعم اليهود والنصارى ويبين لهم حقيقة دين إبراهيم عليه السلام ، فيقول ﴿ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[3] .

وأخبر الله تعالى عنه وعن ابنه إسماعيل ـ عليهما السلام ـ بأنهما مستسلمان لله ، خاضعان لطاعته ، لا يشركان معه في الطاعة أحداً سواه ـ ولا في العبادة غيره ـ فهما مسلمان لله ﴿ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[4] .

ولم يكتف إبراهيم عليه السلام بذلك ، بل تركها كلمة باقية في عقبه ، وجعلها وصية لذريته ﴿ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[5] .

---

(١) سورة يونس ، آية [٧١ ، ٧٢] .

(٢) سورة البقرة ، آية [١٣٠ ، ١٣١] .

(٣) سورة آل عمران ، آية [٦٧] .

(٤) سورة البقرة ، آية [١٢٧ ، ١٢٨] .

(٥) سورة البقرة ، آية [١٣١ ، ١٣٢] .

وهي الوصية التي كررها يعقوب ـ عليه السلام ـ في آخر لحظة من لحظات حياته ، والتي كانت شغله الشاغل الذي لم يصرفه عنه الموتُ وسكراته ، واستجاب أبناؤه لهذه الوصية والدعوة فأسلموا كما أسلم أبوهم ومَنْ سبقه ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾[1] .

وأخبر سبحانه وتعالى عن يوسف عليه السلام ، وهو يتجه إلى ربه في تسبيح الشاكر الذاكر في كل دعوته ، وهو في أبهة السلطان وفي فرحة تحقيق الأحلام : أن يتوفاه ربه ـ حين يتوفاه ـ مسلماً ، فيتم بذلك عليه نعمه في الآخرة ـ كما أتمها في الدنيا ـ وأن يلحقه بالصالحين ، وهم إخوانه من النبيين والمرسلين ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[2] .

وقال الله تعالى عن موسى عليه السلام ، وقد دعا قومه إلى الإسلام ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾[3] .

وفرعون ، عندما أدركه الغرق وعاين الموت ، أعلن إيمانه واستسلامه ، وهو يوقن أن الإسلام هو دعوة موسى عليه السلام ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[4] .

وسحرة فرعون ، لما رأوا آيات ربهم ، وأيقنوا أنهم إليه راجعون ، دعوا الله عز وجل أن يتوفاهم مسلمين لله متابعين لموسى في دينه ، فقالوا

---

(١) سورة البقرة ، آية [١٣٣] .

(٢) سورة يوسف ، آية [١٠١] .

(٣) سورة يونس ، آية [٨٤] .

(٤) سورة يونس ، آية [٩٠] .

لفرعون ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾[1] .

والإسلام هو دعوة سليمان ، عليه السلام ، وقد وجهها أيضاً لبلقيس في كتاب كريم ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾[2] فاستنار قلب بلقيس لهذه الدعوة ، وأعلنت إسلامها وتوحيدها مخلصة لله رب العالمين ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[3]

وقال تعالى عن أنبياء بني إسرائيل[4] ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾[5] .

وأخبر الله تعالى عن حواريي عيسى عليه السلام ، فقال ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾[6] .

ولما وَجَد عيسى ــ عليه السلام ــ من بني إسرائيل الذين أُرسل إليهم ــ الكفر ، سألهم من أنصاري إلى الله ؟ فاستجاب الحواريون لدعوة الإيمان بالله واتباع عيسى في دينه الإسلامي وأشهدوه على ذلك ليكتبهم الله مع الذين شهدوا بالحق وأقرّوا له بالتوحيد ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[7]

---

(١) سورة الأعراف ، آية [١٢٦] .

(٢) سورة النمل ، آية [٣٠ ، ٣١] .

(٣) سورة النمل ، آية [٤٤] .

(٤) قال الإمام الطبري : وإنما عنى الله تعالى ذكره بذلك نبينا محمداً ﷺ في حكمه على الزانيين المحصنين من اليهود بالرجم ، وهو منقول عن السدي وقتادة ، وعن عكرمة قال : النبيُّ ﷺ ومن قبله من الأنبياء يحكمون بما فيها من الحق . تفسير الطبري ٢٤٨/٦ ــ ٢٤٩ ، تحقيق الشيخ محمود محمد شاكر ، وانظر تفسير ابن كثير ٥٩/٢ ــ ٦٢ .

(٥) سورة المائدة ، آية [٤٤] .

(٦) سورة المائدة ، آية [١١١] .

(٧) سورة آل عمران ، الآيتان [٥٢ ، ٥٣] .

وهذا خبر من الله عز وجل : أن الإسلام دينه الذي بعث به عيسى والأنبياء قبله ، لا النصرانية ولا اليهودية ، وتبرئة من الله تعالى لعيسى ممن انتحل النصرانية ودان بها ، كما برّأ إبراهيم من سائر الأديان غير الإسلام ، وذلك احتجاج من الله ـ تعالى ذكره ـ لنبيه ﷺ على وفد نجران[1] .

وأمر الله تعالى خاتم النبيين محمداً ﷺ بذلك فقال ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[2] .

فهو أول المسلمين من هذه الأمة ، لأن إسلام كل نبي متقدم على إسلام أمته ، وهو عليه السلام يبين في هذا الدعاء مسارعته إلى الامتثال بما أُمر به ، فلو لم يكن أحد مسلماً لكان هو عليه السلام أول مسلم لله تعالى ، إذ الإسلام دين الأنبياء جميعاً[3] .

وكان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة يستفتح بقوله : (**وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين ، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا (من) أول المسلمين**)[4] .

---

(١) تفسير الإمام الطبري ٤٥١/٦ ـ ٤٥٢ ، تحقيق محمود شاكر ، ودين المسيح الذي بعثه الله به خلاف دين النصارى .

انظر بالتفصيل : تثبيت دلائل النبوة ، للقاضي عبد الجبار ١١٧/١٠٨/١ ، العلمانية : نشأتها وتطورها وآثارها ، للشيخ سفر عبد الرحمٰن الحوالي ٢٧ ـ ٧٥ ، الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام للإمام القرطبي ٣٩٣ ـ ٤٣٨ .

(٢) سورة الأنعام ، آية [١٦٢ ، ١٦٣] .

(٣) تفسير الطبري ١١٢/٨ ، تحقيق شاكر ، ابن كثير ١٩٩/٢ ، تفسير البيضاوي ١٩٨ ، تفسير أبي السعود ٣١٥/٢ .

(٤) أخرجه الإمام مسلم ٥٣٤/١ ـ ٥٣٥ ، كتاب صلاة المسافرين ، وأبو داود ، مختصر المنذري ٣٧٠/١ ـ ٣٧٢ ما تستفتح به الصلاة ، والترمذي ١٤٩/٥ ـ ١٥٠ في الدعوات ، والنسائي ١٠٠/٢ في الافتتاح ، وابن خزيمة في صحيحه ٢٣٥/١ في ذكر الدعاء بين تكبيرة الافتتاح . . وابن حبان في موارد الظمآن ١٢٤ ، والإمام أحمد في المسند ٢٣٠/١ ، وانظر : مجمع الزوائد ١٠٦/١ ـ ١٠٧ ، التخليص الحبير : لابن حجر ٢٢٩/٢٨١ ، شرح معاني الآثار : للطحاوي ١٩٩/١ .

فهـو صلى الله عليه وسلم على دين التـوحيد والإسلام ، لا اليهودية ولا النصرانية ، كما أن إبراهيم كذلك ؛ فعن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : **(إني لم أُبعث باليهودية ولا بالنصرانية ولكن بُعثت بالحنيفية السمحاء)**(١) .

وأخبر الله سبحانه وتعالى مخاطباً محمداً ﷺ أنه شرع له من الدين ما وصّى به الأنبياء قبله وصية واحدة ، وهي إقامة الدين الحق ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾(٢) .

ثم يخبر الله تعالى أن دين الأنبياء جميعاً دين واحـد وملـة واحـدة ، وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، فيقول ﴿ يَٰٓأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ الطَّيِّبَٰتِ وَاعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾(٣) . ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾(٤) .

إعلان الوحدة الكبرى للدين :

ثم يدعو الله تعالى المسلمين لإعلان الوحدة الكبرى للدين مـن لـدن أبـي الأنبياء إبراهيم عليه السلام إلى عيسى ابـن مـريم عليـه السـلام إلى دعوة الإسلام الأخيرة ، ويدعو أهل الكتاب إلى الإيمان بهذا الدين الواحد ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٥/٢٦٦ عن أبي أمامة ، وفي : ٦/١١٦ عن عائشة،والخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه ٢/٢٠٤ ، في التاريخ ٦/٢٠٩ . قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/٢٧٩) : «رواه أحمد والطبراني ، وفيه علي بن يزيد الألهاني وهو ضعيف» .

وله شاهد عند أحمد عن عائشة وعن ابن عباس وانظر : النهج السديد تخريج تيسير العزيز الحميد ص ٣٣٣

(٢) سورة الشورى ، من الآية [١٣] . (٣) سورة المؤمنون ، آية [٥١، ٥٢] (٤) سورة النساء ، آية [١٦٣] .

﴿وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[1] .

ولذلك أشار النبي ﷺ إلى حقيقة دين الأنبياء عليهم السلام ، وأنه الإسلام فأعلن بذلك الوحدة الكبرى للدين ، فقال : (**أنا أوْلى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة ، ليس بيني وبينه نبي ، والأنبياء إخوة لعلّات ، أمهاتهم شتى ، ودينهم واحد**)[2] .

قاعدة التصور الإسلامي وآثارها :

تلك الوحدة الكبرى بين الرسالات ، وبين الرسل جميعاً ، هي قاعدة التصور الإسلامي ، وهي التي تجعل الأمة المسلمة الأمة الوارثة لتراث العقيدة القائمة على دين الله في الأرض ، الموصولة بهذا الأصل العريق ، السائرة في الدرب على هدى ونور ، والتي تجعل من النظام الإسلامي النظام العالمي الذي يملك الجميعُ الحياةَ في ظله دون تعصب ولا اضطهاد ، والتي تجعل من المجتمع الإسلامي مجتمعاً مفتوحاً للناس جميعاً في مودة وسلام[3] .

وهكذا تتلقى الأمة المسلمة تراث الرسالة كله ، وتقوم على دين الله في الأرض ، ويشعر المسلمون ـ من ثم ـ بضخامة دورهم في هذه الأرض

---

(١) سورة البقرة ، آية [١٣٦] .

(٢) أخرجه البخاري ، فتح الباري ٤٧٨/٦ في أحاديث الأنبياء ، ومسلم ١٨٤٧/٤ كتاب الفضائل ، وأبو داود ، مختصر المنذري ٤٢/٧ كتاب السنة ، والإمام أحمد في مسنده ٢١٩/٣ ، ٤٠٦ ومواضع أخرى .
والإخوة لعَلّات هم الإخوة لأبٍ واحد وأمهاتٍ شتى . غريب الحديث للخطابي ١٦٠/٢ ، الفائق للزمخشري ٤٤/٣ .

(٣) في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب ١١٧/١ ـ ١١٨ ، وانظر : دراسات قرآنية للأستاذ محمد قطب ـ حفظه الله ـ ٩٠ ، ٩١ ، ١٠٤ .

إلى يوم القيامة . فهم الحرّاس على أعز رصيد عرفته البشرية في تاريخها الطويل ، وهم المختارون لحمل راية الله ـ وراية الله وحدها ـ في الأرض ، يواجهون بها رايات الجاهلية المختلفة الشارات ، من قومية ووطنية وجنسية وعنصرية وصهيونية وصليبية واستعمارية وإلحادية . . . إلى آخر شارات الجاهلية التي يرفعها الجاهليون في الأرض ، على اختلاف الأسماء والمصطلحات ، واختلاف الزمان والمكان[1] .

التوحيد قاعدة كل رسالة من عند الله :

وقد جاء الرسل والأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ من عند مرسل واحد ـ سبحانه ـ بكلمة واحدة هي كلمة التوحيد ، ودعوة واحدة هي دعوة التوحيد ، فالتوحيد هو قاعدة كل ديانة جاء بها من عند الله رسول .

ويقرر الله تعالى في القرآن الكريم هذه الحقيقة ويؤكدها ، ويكررها في قصة كل رسول ، وعلى لسان كل واحد منهم ، كما يقررها إجمالا على وجه القطع واليقين ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[2] . ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾[3] . ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾[4] ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾[5] . ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ

(١) في ظلال القرآن ٣٤٢/٣ .

(٢) سورة الأعراف ، آية [٥٩] .

(٣) سورة الأعراف ، آية [٦٥] .

(٤) سورة الأعراف ، آية [٧٣] .

(٥) سورة الأعراف ، آية [٨٥] .

﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾[1] . ﴿ وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾[2] .

ويقرر الله تعالى هذه الحقيقة قاعدة عامة في دعوة كل الرسل فيقول سبحانه ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾[3] . ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ ﴾[4] .

التوحيد مفتاح دعوة الرسل :

فالتوحيد هو مفتاح دعوة الرسل ، وهو أول ما يدخل به المرء في الإسلام وآخر ما يخرج به من الدنيا ، فهو أول واجب وآخر واجب[5] ،

---

(١) سورة طه ، الآيات [٩ ، ١٤] .

(٢) سورة المائدة ، الآيتان [١١٦ ـ ١١٧] .

(٣) سورة الأنبياء ، آية [٢٥] .

(٤) سورة النحل ، من الآية [٣٦] .

(٥) مدارج السالكين : لابن القيم ٣/٤٤٣ - ٤٤٤ .

والتوحيد نوعان : توحيد في المعرفة والإثبات ، وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات ، وتوحيد في الطلب والإرادة ، وهو توحيد الإلهية والعبادة .

أما توحيد الربوبية : فهو توحيد الله تعالى بأفعاله ، والإقرار بأنه وحده خالق كل شيء ومليكه ، وإليه يرجع الأمر كله في التصريف والتدبير ، وهو يستلزم ويقتضي توحيد الألوهية والعبادة ، وهو إفراد الله تعالى بالعبادة والتأله قولاً وقصداً وفعلاً .

وتوحيد الأسماء والصفات : هو الإيمان بما وصف الله تعالى به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل .

انظر بالتفصيل : مدارج السالكين ، نفسه ، شرح العقيدة الطحاوية ١٩-٣٤ ، شرح كتاب التوحيد ١٧-٢٠ ، مذكرة التوحيد لفضيلة الشيخ عبدالرزاق عفيفي ٢٠/٣٦ ، شرح العقيدة الواسطية للهراس ٢٠-٢٢ ، واقرأ الباب الثاني من طريق الدعوة في ظلال القرآن ، جمع أحمد فائز ، الجزء الثاني . والمجلد الثاني من مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية ، رحمه الله تعالى .

ولهذا قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل ، رضي الله عنه ، وقد بعثه إلى اليمن : (**إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب ، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله وحده ـ وفي رواية : فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ـ فإن هم أطاعوا لك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوا لك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم ، فإن أطاعوا بها فخذ منهم وتوقَّ كرائم أموالهم**)[1] .

وقال رسول الله ﷺ : (**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا منِّي دمائهم وأموالهم إلا بحق الإسلام ، وحسابهم على الله**)[2] .

وقد جعل الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ هذا الحديث تفسيراً لقوله تعالى ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾[3] ، فالتخلية في هذه الآية والعصمة في ذلك الحديث بمعنى واحد[4] .

---

(١) أخرجه البخاري ، الفتح ٣/٢٦١ ، كتاب الزكاة ، ومسلم ١/٥٠ ، ٥١ كتاب الإيمان ، وأبو داود ٢/١٩٩ ـ ٢٠٠ ، والترمذي ٢/٦٩ ، والنسائي ٥/٢ ـ ٤ ، وابن ماجه ١/٥٦٨ كلهم في الزكاة ، والإمام أحمد في المسند ١/٢٣٣ .

وكرائم الأموال : هي جامعة الكمال الممكن في حقها من غزارة لبن وجمال صورة أو كثرة لحم وصوف .

(٢) أخرجه البخاري ٧٥/١ كتاب الإيمان ، ومسلم أيضاً ٥١/١ ـ ٥٢ ، وأبو داود ١٦٣/٢ ـ ١٦٩ في الزكاة والترمذي ١١٧/١ في الإيمان ، والنسائي ١٤/٥ ، وابن ماجه ٢٧/١ والإمام أحمد ١١/١ ، والدارمي في سننه ٣٧٩/١ ، وابن أبي شيبة في المصنف ١١/٣ .

(٣) سورة التوبة ، آية [٥] .

(٤) فتح الباري بشرح صحيح البخاري : للحافظ ابن حجر ٧٥/١ .

حقيقة واحدة :

فكل الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ قد أدركوا حقيقة « التوحيد » ، وكلهم بُعثوا بها ، وكلهم دعا إلى عبادة الله الواحد ، دعا إلى الحقيقة التي تلقاها وأُمِر أن يبلِّغها ، وكان إدراكهم لها هو المنطق الفطري الناشئ من إيقاع الناموس الواحد في الفطرة الواصلة ، كما أن نهوضهم لتبليغها هو النتيجة الطبيعية لإيمانهم المطلق بكونها الحقيقة ، وبكونها صادرة إليهم من الله الواحد الذي لا يتعدد . . . ومن ثم كان هناك مصدر واحد يتلقى منه البشر التصور الصادق الكامل الشامل لحقيقة الوجود كله ، ولحقيقة الإنسان ، ولغاية الوجود كله وغاية الوجود الإنساني(١) .

ثبات . . لا تطور . .

مصدر واحد هو مصدر الرسالات . . . جبهة واحدة لا تتعدد ، هي التي أنزلت الكتاب بالحق ، هذا الكتاب الذي أنزله الله بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وهو كتاب واحد في حقيقته جاء به الرسل جميعاً ، فهو كتاب واحد في أصله ، وهي ملة واحدة في مجموعها ، وهو تصور واحد في قاعدته : إله واحد ، ورب واحد ، ومعبود واحد ، ومشرّع واحد لبني البشر ، ثم تختلف التفصيلات بعد ذلك وفق حاجات الأمم والأجيال ، ووفق أطوار الحياة والارتباطات ، حتى تكون الصورة الأخيرة التي جاء بها الإسلام ، وأطلق الحياة تنمو في محيطها الواسع الشامل بلا عوائق بأمر الله ومنهجه وشريعته الحية المتجددة في حدود ذلك المحيط الشامل الكبير .

وهذا الذي يقرره القرآن ، في أمر الكتاب ، هو النظرية الإسلامية في

(١) طريق الدعوة في ظلال القرآن : ٢ / ٢١ .

خط سير الأديان والعقائد . . . كل نبي جاء بهذا الدين الواحد في أصله ، الذي يقوم على القاعدة الأصلية : قاعدة التوحيد المطلق . . . ثم يقع الانحراف عقب كل رسالة ، وتتراكم الخرافات والأساطير حتى يبتعد الناس نهائياً عن ذلك الأصل الكبير ، وهنا تجيء رسالة جديدة ، تجدد العقيدة الأصيلة ، وتنفي ما علق بها من الانحرافات وتراعي أحوال الأمة وأطوارها في التفصيلات .

وهذا الثبات في أصل التصور الإيماني هو الذي يتفق مع وظيفة الكتاب الذي أنزله الله بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه في كل زمان ، ومع كل رسول ، منذ أقدم الأزمان[1] .

لا نفرق بين أحد من رسله :

ولذلك كان الإيمان برسل الله جميعاً ، دون تفريق ، هو شرط الإيمان ، وعدم الإيمان بواحد منهم هو كفر بهم جميعاً ، إذ الإيمان لا يتجزأ ، فعندما يكفر بواحد من رسل الله يكون قد كذّب الله الذي أرسله ولأن جميع الرسل عليهم السلام جاؤوا بكلمة التوحيد ، فإن الله سبحانه يقول عمن يكذب بواحد منهم إنهم يكذبون الرسل ـ مع أنهم لم يرسل إليهم إلا رسولا واحداً ، ليوحي التعبير بأن تكذيب الرسول الواحد هو بمثابة تكذيب الرسل كلهم ، لأنهم كلهم يقولون ذات الشيء بلا تغيير ـ فمن كذّب واحداً منهم فقد كذّبهم جميعاً[2] .

---

(١) مقتطفات من طريق الدعوة في ظلال القرآن ٢/٢١ ـ ٣٣ ، وانظر : الإسلام في مواجهة التحديات : للمودودي ٤٣ ـ ٤٨ ، وله أيضاً الحضارة الإسلامية ١٧٢ ـ ١٧٥ ، العبودية : لابن تيمية ٨٣ ، الدين : للدكتور محمد عبد الله دراز ١٠٣ وما بعدها ، مستقبل الحضارة بين العلمانية والإسلام : يوسف كمال ١٦٠ .

(٢) دراسات قرآنية : للأستاذ محمد قطب ١٠٢ ، وفيه شرح لوسائل القصص القرآني في إبراز قضية التوحيد على لسان كل الرسل .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾[1] .

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾[2] .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾[3] .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾[4] .

﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾[5]

ولذلك يتوعد الله تبارك وتعالى أولئك الذين يُكذِّبون واحداً من الرسل ، فيقول ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾[6] .

وذلك هو شأن اليهود والنصارى ، الذين كذبوا رسل الله إلى خلقه بوحيه ، حيث فرّقوا بين الله ورسله في الإيمان ، فآمنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعض ، بمجرد التشهي والعادة وما أَلْفَوْا عليه أباءهم ، لا عن دليل قادهم إلى ذلك ، فإنه لا سبيل إلى ذلك الدليل . بل بمجرد الهوى والعصبية ، فاليهود ــ عليهم لعائن الله ــ : آمنوا بالأنبياء إلا عيسى ومحمداً ، عليهما الصلاة والسلام ، والسامرة منهم : لا يؤمنون بنبي بعد يوشع خليفة موسى بن عمران . والنصارى الضالون : آمنوا بعيسى[7] وبالأنبياء من قبله ، وكفروا بخاتمهم وأشرفهم محمد ﷺ ومن كلا الفريقين أو الطائفتين من آمن بنبوة محمد ﷺ ولكن على أنه نبي للعرب

(١) سورة الشعراء ، الآيات [١٠٥ ــ ١٠٧] .

(٢) سورة الشعراء ، الآيات [١٢٣ ــ ١٢٥] .

(٣) سورة الشعراء ، الآيات [١٤١ ــ ١٤٤] .

(٤) سورة الشعراء ، الآيات [١٦٠ ــ ١٦٢] .

(٥) سورة الشعراء ، الآيات [١٧٦ ــ ١٧٨] .

(٦) سورة النساء ، الآيتان [١٥٠ ــ ١٥١] .

(٧) آمنوا به على أنه إله أو ابن إله ، فكفروا بذلك كفراً مضاعفاً .

خاصة ، وليست رسالة عامة للبشر كافة ، ولا لبني إسرائيل ــ بزعمهم ــ[1] ونحو هذا من تفرقاتهم التي كانت تعنتاً وزوراً وضلالة ، واتخذوا بين أضعاف ذلك طريقاً إلى الضلالة التي أحدثوها ، والبدعة التي ابتدعوها ، ــ يدعون الناس إليه ، فكفروا عندئذ بالله ورسله على ما يؤدي إليه مذهبهم وتقتضيه آراؤهم وتحكماتهم ــ وإن لم يصرحوا بأنهم يؤمنون بالله ويكفرون برسله ــ بل حصل كفرهم بطريق الالتزام . . . فالإيمان ببعض الأنبياء والرسل والكفر ببعضهم الآخر كفر بالله تعالى وتفريق بين الله ورسله ، لأنه عز وجل قد أمرهم بالإيمان بجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وما من نبي إلا وقد أخبر قومه بحقيقة دين نبينا محمد ﷺ فمن كفر بواحد كفر بالكل وبالله تعالى أيضاً من حيث لا يشعر .

الكفر بواحد من الرسل كفر بالجميع :

والمقصود : أن من كفر بنبي من الأنبياء فقد كفر بسائر الأنبياء ، فإن الإيمان واجب بكل نبي بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض ، فمن رد نبوته للحسد أو العصبية أو التشهي يتبين أن إيمانه بمن آمن به من الأنبياء ليس إيماناً شرعياً ، إنما هو عن غرض وهوى وعصبية[2] .

---

(١) ومنهم فرقة العيسوية من اليهود ، وهي تقول بنبوته ﷺ ومعجزاته وتنكر أنه بعث إلى غير العرب .
انظر : اعتقادات فرق المسلمين : للرازي ٨٣ ، كشف الأسرار : لعلاء الدين البخاري ١٥٧/٣ ، بين الإسلام والمسيحية : لأبي عبيدة الخزرجي ٢٦٢-٢٦٣ .
وللرد على ما تعلق به أهل الكتاب من الآيات لإثبات زعمهم هذا ، انظر : الجواب الصحيح : لابن تيمية ٢٨/١ وما بعدها .

(٢) انظر : تفسير الطبري ٣٥٢/٩ ــ ٣٥٣ ، طبع شاكر ، ابن كثير ٥٧٣/١ ، البحر المحيط : لأبي حيان ٣٨٥/٣ ، تفسير الفخر الرازي ٩٣/١١ ــ ٩٥ ، روح المعاني للآلوسي ٤/٥ ــ ١٥ ، الجواب الصحيح : لابن تيمية ٣١/١ ــ ٣٧ ، ١٦١ ــ ١٧٥ ، مجموع الفتاوى : لشيخ الإسلام ٢٠٣/٤ ــ ٢٠٨ ، الرسالة المحمدية : للسيد سليمان الندوي ٢٢٣ ــ ٢٢٦ .

وأخرج الإمام الطبري بسنده عن قتادة في تفسير آية النساء السابقة أنه قال : أولئك أعداء الله ، اليهود والنصارى ، آمنت اليهود بالتوراة وموسى ، وكفروا بالإنجيل وعيسى ، وآمنت النصارى بالإنجيل وعيسى ، وكفروا بالقرآن وبمحمد ﷺ ، فاتخذوا اليهودية والنصرانية ، وهما بدعتان ليستا من الله وتركوا الإسلام ، وهو دين الله الذي بعث به رسله[1] .

التصور الإسلامي لوحدة الرسالة والرسل :

والقرآن الكريم ينكر على هؤلاء وهؤلاء ، ويقرر التصور الإسلامي الشامل الكامل عن الإيمان بالله ورسله . وبدون تفريق كذلك بين رسل الله جميعاً .

إن التوحيد المطلق لله سبحانه يقتضي توحيد دينه الذي أرسل به الرسل للبشر ، وتوحيد رسله الذين حملوا هذه الأمانة للناس ، وكل كفر بوحدة الرسل أو وحدة الرسالة هو كفر بوحدانية الله في الحقيقة ، وسوء تصور لمقتضيات هذه الوحدانية ، فدين الله للبشر ومنهجه للناس هو هو ، لا يتغير في أساسه ، كما أنه لا يتغير في مصدره .

ولذلك عبّر السياق القرآني هنا عمن يريدون التفرقة بين الله ورسله ــ بأن يؤمنوا بالله ويكفروا بالرسل ــ وعمن يريدون التفرقة بين الرسل ــ بأن يؤمنوا ببعض ويكفروا ببعض ــ عبر عن هؤلاء وهؤلاء بأنهم : « **الذين يكفرون بالله ورسله** » و« **أولئك هم الكافرون حقاً** » .

أما المسلمون : فهم الذين يشتمل تصورهم الاعتقادي على الإيمان بالله ورسله جميعاً بلا تفرقة ، فكل الرسل عندهم موضع اعتقاد واحترام ، وكل الديانات السماوية عندهم حق ، ما لم يقع فيها التحريف ، فلا

---

(١) تفسير الطبري ٣٥٤/٩ شاكر ، وهو مروي أيضاً عن الحسن والسدي وابن جريج ، انظر : البحر المحيط : لأبي حيان ٣٨٥/٣ .

تكون عندئذ من دين الله وإن بقي جانب منها لم يُحرَّف ، إذ أن الدين وحدة ، وهم يتصورون الأمر كما هو في حقيقته : إلهاً واحداً . . . وموكب الإيمان في حسهم موصول بعقيدة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وإخوانهم من الرسل ، صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً .

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[1] . ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾[2] .

ولذلك استحقوا الأجر من الله تعالى واستحقوا أن يكونوا هم المؤمنون حقاً في مقابل أولئك الكافرين حقاً ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[3] .

ولله في هذا حِكْمَة :

والإسلام إنما يتشدد هذا التشدد في توحيد العقيدة في الله ورسله :

أ ـ لأن هذا التوحيد هو الأساس اللائق بتصور المؤمن له سبحانه .

ب ـ كما أنه هو الأساس اللائق بوجود منظَّم غير متروك للتعدد والصدفة والتصادم .

ج ـ ولأنه هو العقيدة اللائقة بإنسان يرى وحدة الناموس في هذا الوجود أينما امتد بصره .

(١) سورة البقرة ، آية [٢٨٥] .

(٢) سورة النساء ، الآيتان [١٦٣ ـ ١٦٤] .

(٣) سورة النساء ، آية [١٥٢] .

د ـ ولأنه التصور الكفيل بضم المؤمنين جميعاً في موكب واحد يقف أمام صفوف الكفر ، وفي حزب واحد يقف أمام أحزاب الشيطان . . . ولكن هذا الصف الواحد ليس هو صف أصحاب الاعتقادات المحرّفة ـ ولو كان لها أصل سماوي ـ إنما هو صف أصحاب الإيمان الصحيح والعقيدة التي لم يدخلها انحراف .

هذا الدين وهذه الأمة :

ومن ثم كان الإسلام هو « الدين » الذي لا يقبل الله من الناس غيره ، لأنه هو الذي يتفق مع وحدانية الله ومقتضيات هذه الوحدانية ، وكان « المسلمون » « خير أمة أُخرجت للناس » . . . المسلمون المعتقدون عقيدة صحيحة ، العاملون بهذه العقيدة ، لا كل مَنْ وُلِدَ في بيت مسلم ، ولا كل من لاك لسانه كلمة الإسلام .

. . . وفي ظل هذا البيان يبدو الذين يفرقون بين بعض الرسل وبعض منقطعين عن موكب الإيمان ، مفرّقين للوحدة التي جمعها الله ، منكرين للوحدانية التي يقوم عليها الإيمان بالله[1] .

بين الإيمان والإسلام :

وبعد أن عرفنا الإسلام بمعناه العام ، حري بنا أن نتعرف على معناه في لسان اللغة العربية ، ثم في اصطلاح الشرع ، بمعناه الخاص ، ونوازن هذا المعنى بمعنى الإيمان .

معنى الإيمان لغةً :

الإيمان له في لغة العرب استعمالان ، لأنه تارة يتعدى بنفسه ،

---

(١) في ظلال القرآن ، ٧٩٧/٦ ـ ٧٩٨ ، ٨٠٤ ـ ٨٠٥ ، طريق الدعوة في ظلال القرآن ٣٤/٢ ـ ٣٧ بتصرف يسير .

فيكون معناه التأمين ، أي إعطاء الأمان ، تقول : آمنت فلاناً إيماناً ، وأمّنته تأميناً ، بمعنى واحد . قال الله تعالى ﴿ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾[1] ومنه اسمه تعالى « المؤمن » لأنه أمّن عباده من أن يظلمهم .

وتارة يتعدى بالباء أو اللام ، فيكون معناه التصديق[2] ، ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ ﴾[3]

معنى الإسلام لغةً :

وأما الإسلام ، فأصل مادة اشتقاقه هي السين واللام والميم ، يقول العلامة اللغوي ابن فارس في مادة : « سلم » : السين واللام والميم ، معظم بابه من الصحة والعافية ، فالسلامة أن يسلم الإنسان من العاهة والأذى ، قال أهل العلم : الله ، جل ثناؤه ، هو السلام ، لسلامته مما يلحق المخلوقين من العيب والنقص والفناء .

ثم يقول : ومن الباب أيضاً : الإسلام وهو : الانقياد ، لأنه يَسْلَمُ من الإباء والامتناع[4] .

ويقول الراغب الأصفهاني : الإسلام هو الدخول في السَّلم ، وهو أن يسلم كل واحد منهما من أن يناله من ألم صاحبه[5] .

والإسلام ـ أيضاً ـ يستعمل في لغة العرب متعدياً ولازماً :

أما استعماله متعدياً : فتقول : أسلمت الشيء إلى فلان ، إذا أخرجته إليه ، ومنه : السَّلَم في البيع ، أي السلف فيه ، وسلَّمه الله تعالى من

---

(١) سورة قريش ، آية [٤] .

(٢) المختار من كنوز السنة ، للدكتور محمد عبدالله دراز ، ص ٦٩ ، وانظر : عمدة القاري ٤ شرح البخاري ١/١٠٢ .

(٣) سورة البقرة ، آية [٧٥] .

(٤) معجم مقاييس اللغة : لابن فارس ٣/٩٠ .

(٥) مفردات القرآن : للراغب الأصفهاني ٢٤٠ .

الآفة تسليماً ، وسلّمته إليه تسليماً فتسلّمه ، أعطيته فتناوله . وأسلم العدوَّ : خذله ، وأسلم أمره إلى الله : سلمه . وكان ابن عمر رضي الله عنهما ، ينهى أن يقال : أسلمت إلى فلان أو أعطيته السَّلَم ، بمعنى السلف ، وكان يقول : الإسلام لله ، وأُحب أن يكون هذا الاسم محضاً في طاعة الله لا يدخله شيء غيره . وعند استعماله لازماً يكون معناه : الانقياد والدخول في السلم ، أي الاستسلام ، كما أن الإصباح هو الدخول في الصباح ، والإحرام هو الدخول في الحرمة .

ومعنى الإسلام لازماً يرجع إلى معناه متعدياً ، لأن من انقاد واستسلم للغير فقد سلّم إليه نفسه وألقى إليه بمقاليده(1) .

موازنة بين الإسلام والإيمان في اللغة :

وبالمقارنة بين هاتين الكلمتين في استعمالهما لازمتين ، نجد أن التصديق ، وهو اعتقاد الصدق ، محله القلب ، وإذا سمينا الإقرار والاعتراف باللسان تصديقاً ، فإنما نسميه بذلك لكونه ترجمة لذلك التصديق القلبي وعبارة عنه ، وكذلك امتثال الأمر يسمى تصديقاً ـ لغوياً ـ من باب المجاز .

أما الانقياد ، وهو الطاعة والامتثال ، فإنه بحسب حقيقته اللغوية يتسع للمراتب الثلاثة لأنه إما بالظاهر أو الباطن أو بكليهما ، وعلى هذا فمعنى الإسلام لغةً أعم من الإيمان عموماً مطلقاً .

وعلى هذا يكون معنى الإسلام غير معنى الإيمان لأن أحدهما استسلام بالظاهر والآخر إذعان بالباطن ، ـ ولا تلازم بينهما ـ بل قد

(1) انظر : ترتيب القاموس المحيط ٢/٦٠٣ ، الصحاح : للجوهري ٥/١٩٥٠ ـ ١٩٥٢ ، غريب الحديث ، للإمام الخطابي ، ٣/٤١١ ، مجموع فتاوي شيخ الإسلام ٧/٦٣٥ ، المختار من كنوز السنّة ٦٩ ـ ٧١ .

يوجد كل منهما بدون الآخر ، كالمؤمن بالشيء يكتم إيمانه فيكون مؤمناً به غير مسلم ، والجاحد بالشيء يتظاهر أنه موقن فيكون مسلماً غير مؤمن . وقد يجتمعان إذا تطابق الظاهر والباطن على أمر واحد فكان القول والعمل به مصداقاً للاعتقاد له[1] .

الإيمان والإسلام في الاصطلاح الشرعي :

وفي الاصطلاح الشرعي فكثيراً ما نجد أنه يراد بهما ذلك المعنى اللغوي نفسه بدون تصرف ، ويراد بالإيمان مطلق التصديق بحق أو باطل ، ويراد بالإسلام مطلق الانقياد لأيّ آمر .

وكثيراً ما يراد بهما معنى أخص صار في العرف الشرعي حقيقة جديدة ، فيراد من الإيمان خصوص التصديق بخبر السماء المنزل على الأنبياء ، ويراد من الإسلام خصوص الانقياد لله رب العالمين .

وضابط ذلك أن ننظر في الموضع الذي يذكر فيه أحدهما ، فإن كانا متعلقين بأن قيل : « إيمان بكذا » أو « إسلام لكذا » عرفنا أنهما بمعناهما اللغوي البحت ، أي مطلق التصديق والانقياد لما تعلقا به ، وأما إذا ذكرا هكذا بدون متعلَّق ، فالمراد بهما تلك الحقيقة الشرعية الخاصة وهي التصديق بالحق والانقياد له[2] .

معنى الإيمان شرعاً :

وعندئذ ، فالإيمان مجموع مركب من ثلاثة عناصر أو أجزاء :

الأول : وهو الجزء الذي لا غنى عنه بحال ــ وإذا عدم عدمت حقيقة الإيمان ــ وهو « الاعتقاد » أي العلم الجازم بكل ما ثبت بالضرورة أنه

---

(١) المختار من كنوز السنَّة : د. محمد عبد الله دراز ٧٠ ٧٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٧٣ .

جاء من عند الله على لسان رسله ، ولا بد من اليقين الجازم من الرضى والارتياح النفساني لهذه العقيدة ، فإذا تحقق هذا الجزء الأول فقد وُجد أساس الإيمان .

الثاني : إعلان هذه العقيدة بالقول أو غيره من كل ما يدل عليها دلالة ظاهرة ، وهذا الاعتراف الظاهري يعد ترجمة عن العقيدة يدل دلالة ظنية عليها .

والثالث : العمل بكل ما أمر الله به من فريضة ونافلة ، والانتهاء عما نهى الله عنه من حرام وشبهة صغيرة وكبيرة في سره وعلانيته بقلبه وجارحته[1] .

معنى الإسلام شرعاً :

والإسلام يجمع معنيين ، أحدهما : الانقياد والاستسلام ، والثاني : إخلاص ذلك وإفراده لله ، وعنوانه قول : لا إله إلا الله .

وله : **معنيان ، أحدهما :** الدين المشترك ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، الذي بُعث به جميع الأنبياء ، وقد سبق شرح هذا المعنى .

والثاني : ما اختص به نبينا محمد ﷺ من الشرعة والمنهاج ، وهو الشريعة والطريقة والحقيقة ، وله مرتبتان :

إحداهما : الظاهر من القول والعمل ، وهو المباني الخمس ، أركان الإسلام .

والثانية : أن يكون ذلك الظاهر مطابقاً للباطن[2] .

ويقول الراغب الأصفهاني : الإسلام في الشرع على ضربين :

أحدهما : دون الإيمان ، وهو الاعتراف باللسان ، وبه يحقن الدم ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ٧٣ .

(٢) انظر : مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٧/٦٣٥ ـ ٧٣٦ .

حصل معه الاعتقاد أو لم يحصل ، وإياه قصد بقوله تعالى ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ﴾[1] .

والثاني : فوق الإيمان : وهو أن يكون مع الاعتراف اعتقاد بالقلب ووفاء بالفعل واستسلام لله في جميع ما قضى وقدّر ، كما ذكر عن إبراهيم عليه السلام في قوله ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[2] وقوله ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾[3] أي اجعلني ممن استسلم لرضاك[4] .

هل الإيمان والإسلام مترادفان أم متغايران ؟

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : قد صار الناس في مسمى الإسلام على ثلاثة أقوال : قيل هو الإيمان ، وهما اسمان لمسمى واحد ، وقيل : هو الكلمة .

ولكن التحقيق ابتداء هو ما بينه النبي ﷺ لما سئل عن الإسلام والإيمان ، ففسر الإسلام بالأعمال الظاهرة والإيمان بالأصول الخمسة[5] فليس لنا إذا جمعنا بين الإسلام والإيمان أن نجيب بغير ما أجاب به النبي ﷺ ، وأما إذا أُفرد اسم الإيمان فإنه يتضمن الإسلام ، وإذا أفرد الإسلام ، فقد يكون مع الإسلام مؤمناً ، بلا نزاع ، وهذا هو الواجب ، وهل يكون مسلماً ولا يقال له مؤمن ؟ . . . وكذلك هل يستلزم الإسلام للإيمان ؟ هذا فيه النزاع . . . والوعد الذي في القرآن بالجنة وبالنجاة من

---

(١) سورة الحجرات ، آية [١٤] .

(٢) سورة البقرة ، آية [١٣١] .

(٣) سورة يوسف ، آية [١٠١] .

(٤) مفردات الراغب الأصفهاني ٢٤١ ، وانظر : تهذيب اللغة : للأزهري ٢/٤٥١ ـ ٤٥٢ ، لسان العرب : لابن منظور ٥/١٨٥ وما بعدها .

(٥) أركان الإيمان كما جاءت في الحديث ستة : ويمكن أن يكون الإيمان بالقدر جزءاً من الإيمان بالله . فتكون الأصول أو الأركان خمسة .

العذاب إنما هو معلق باسم الإيمان ، وأما اسم الإسلام مجرداً ، فما علّق به في القرآن دخول الجنة ، لكنه فرضه وأخبر أنه دينه الذي لا يقبل من أحد سواه[1] .

ويستخلص المتتبع لاستعمالات الإيمان والإسلام في القرآن الكريم والسنة النبوية « قاعدة استقرائية » وهي أنهما « إذا اجتمعا افترقا ، وإذا افترقا اجتمعا » .

أما أنهما إذا اجتمعا افترقا ، فمعناه أنهما إذا ذكرا لفظاً في سياق واحد كان لفظ الإيمان باقياً على أصل اختصاصه بالاعتقاد والإسلام باقياً على اختصاصه بالعمل . وأما أنهما إن افترقا اجتمعا ، فمعناه إذا ذكر أحد اللفظين في معرض المدح والثناء بدون الآخر ، ولم تكن هناك قرينة دالة على اختصاص اللفظ بأصل معناه ، كان المراد بالمذكور معناه ومعنى صاحبه الذي اقترن به[2] .

أصل معنى كلمة « الإسلام » :

وأصل كلمة « الإسلام » هو الاستسلام والخضوع ، لأنه من : « استسلمت لأمره » ، وهو الخضوع لأمره ، وإنما سُمِّيَ « المسلم » مسلماً بخضوع جوارحه لطاعة ربه كما جاء عن الربيع وأبي العالية وسعيد بن جبير في قوله تعالى ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ ﴾[3] يقول : أخلص له العمل . وكما قال زيد بن عمرو بن نفيل :

وأسلمتُ وجهي لمن أسلمتْ ... له المزن تحمل عذبا زلالا

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٧/٢٥٩ ــ ٢٦٠ ، وانظر : ص ٣٧٥ ــ ٣٧٦ ، شرح العقيدة الطحاوية ٢٩٤ ــ ٢٩٨ .

(٢) المختار من كنوز السنّة ٩١ ــ ٩٥ ، فتح الباري : لابن حجر ١/١١٥ .

(٣) سورة البقرة ، آية [١١٢] .

يعني بذلك : استسلمت لطاعة من استسلم لطاعته المزن وانقادت له[1] .

وجاء تفسير الآية بإخلاص العمل ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وكذلك قال مقاتل : هي إخلاص العمل وإخلاص الدين والتوحيد ، وقيل إخلاص القصد . وقيل : الخضوع والتواضع .

وقد أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام بالإخلاص له والاستسلام والانقياد ، فأجاب إلى ذلك قدراً وشرعاً[2] ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[3] .

وهذه المعاني كلها متقاربة ولا تَنافي بينها ، وما قد يظهر فيها من خلاف فهو اختلاف تنوع ، لا اختلاف تضاد ، واختلاف التنوع هذا على نوعين :

أحدهما : أن يعبر كل واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه ، تدل على معنى في المسمَّى غير المعنى الآخر ، مع اتحاد المسمى .

والثاني : أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل وتنبيه المستمع على النوع[4] .

---

(١) تفسير الطبري ٥١٠/٢ ـ ٥١١ ، تفسير ابن كثير ١٥٥/١ .

(٢) ابن كثير ١٨٦/١ ، وانظر : الوجوه والنظائر في القرآن : لمقاتل بن سليمان ١٣٥ ـ ١٣٦ ، البحر المحيط : لأبي حيان ٣٥٢/١ ، تفسير أبي السعود ٢٦٠/١ ، روح المعاني : للألوسي ٣٦٠/١ .

(٣) سورة البقرة ، آية [١٣١] .

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣٣٣/١٣ ، ٣٣٧ ، مقدمة في أصول التفسير ٣٨ ـ ٤٢ ، بتحقيق أستاذي الدكتور عدنان محمد زرزور ، وفي اقتضاء الصراط المستقيم ٣٧ ـ ٣٨ ، تفصيل آخر لأوجه اختلاف التنوع ، وأن كل واحد من المختلفين مصيب فيه بلا تردد . وانظر العقيدة الطحاوية ٤٦٠ ـ ٤٦٤ .

فالإسلام يتضمنه الاستسلام لله وحده ، فمن استسلم له ولغيره كان مشركاً ، ومن لم يستسلم له كان مستكبراً عن عبادته ، والمشرك والمستكبر عن عبادته كافر ، والاستسلام له وحده عبادته وحده وطاعته وحده .

فهذا دين الإسلام الذي لا يقبل الله غيره ، وذلك إنما يكون بأن يطاع في كل وقت بفعل ما أمر به في ذلك الوقت ، فإذا أمر في أول الأمر باستقبال الصخرة ، ثم أمرنا ثانياً باستقبال الكعبة ، كان كل من الفعلين حين أمر به داخلاً في الإسلام .

فالدين هو الطاعة والعبادة له في الفعلين ، وإنما تتنوع بعض صور الفعل ، وهو وجه المصلي ، فكذلك الرسل دينهم واحد ، وإن تنوعت الشريعة والمنهاج والوجهة والمنسك ، فإن ذلك لا يمنع أن يكون الدين واحداً ، كما لم يمنع ذلك في شريعة الرسول الواحد(١) .

الدين واحد والشرائع متعددة :

فإذا كان الدين واحداً ، فإن الشرائع مختلفة في الأوامر والنواهي ، فقد يكون الشيء في هذه الشريعة حراماً ، ثم يحل في الشريعة الأخرى ، وبالعكس ، وقد يكون خفيفاً في شريعة فيزداد بالشدة في الشريعة الأخرى ، وقد تختلف طرق العبادة ، نظراً لاختلاف الناس وطرق تعليمهم باختلاف استعداداتهم وظروف بيئتهم في مختلف العصور والأزمان ، إذ أن الشريعة تأتي لتلبية حاجات الناس ، وهذه قد تختلف من أمة لأخرى ومن زمن لآخر . كما تختلف الشرائع في شمولها لبعض الأحكام مما لم يكن منصوصاً عليه في شريعة سابقة خاصة ، لأن كل شريعة لاحقة إنما جاءت مكملة أو موضحة لشريعة سابقة أو مصححة لما وقع فيها من انحراف .

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى ٣/٩٠ ـ ٩٢ ، اقتضاء الصراط المستقيم ٤٥٤ ـ ٤٥٥ ، الإيمان ٢٥٠ .

ومن أوضح ذلك ما جاءت به شريعتنا الإسلامية من تعاليم ، مما لم يكن في الشرائع السابقة مما يحتاج إليه الناس في حياتهم اليومية وفي روابطهم الشخصية ومعاملاتهم لبعضهم البعض ، فردية كانت هذه المعاملات أو جماعية ، كبيان نظم البيع والشراء والإيجار في العقارات والمنافع . . . وغير ذلك من ضروب المعاملات .

وهذا الاختلاف بشتى صُوَره ، إنما يقتضيه ما لله تعالى من الحكمة البالغة والحجة الدامغة في اختلاف صور العبادات والشرائع باختلاف استعداد الأقوام ومقتضيات الزمان والمكان[1] .

وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى كثير من هذه المعاني ، فقال عن عيسى عليه السلام ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾[2] ، وقال عن دعوة محمد ﷺ ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[3] ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾[4] .

ثم وضع قاعدة عامة ، فقال سبحانه ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[5] .

فلكل أهل ملة وجهة هو موليها ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : يعني بذلك أهل الأديان ، يقول لكل أهل ملة قبلة يرضونها ، ووجه الله ـ تبارك وتعالى اسمه ـ حيث توجه المؤمنون .

---

(١) انظر : حجة الله البالغة للدهلوي ٨٦/١ .

(٢) سورة آل عمران ، آية [٥٠] .

(٣) سورة الأعراف ، آية [١٥٧] .

(٤) سورة المائدة ، آية [١٥] .

(٥) سورة البقرة ، آية [١٤٨] .

وقال أبو العالية : لليهودي وجهة هو موليها ، وللنصراني وجهة هو موليها ، وهداكم أنتم أيها الأمة ، إلى القبلة التي هي القبلة[1] .

وهذا شبيه بقوله تعالى ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾[2] .

قال الإمام الطبري : ومعنى الكلام : لكل قوم منكم جعلنا طريقاً إلى الحق يؤمّه وسبيلاً واضحاً يعمل به[3] .

واختلف أهل التأويل في المعنيّ بقوله تعالى ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً ﴾[4] فقال بعضهم : عنى بذلك أهل الملل المختلفة ، أي أن الله جعل لأهل كل ملة شريعة ومنهاجاً ، وفسر قتادة الشريعة والمنهاج فقال : سبيلاً وسنَّة ، والسنن مختلفة ، للتوراة شريعة وللإنجيل شريعة وللقرآن شريعة يحلّ الله فيها ما يشاء ويحرم ما يشاء ، بلاءً ، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه ، ولكن الدين الواحد الذي لا يقبل الله غيره : التوحيد والإخلاص لله ، الذي جاءت به الرسل ، لأن الله تعالى ذكر ما كتب على بني إسرائيل في التوراة ، وتقدم إليهم بالعمل بما فيها ، ثم ذكر أنه قفّى بعيسى ابن مريم على آثار الأنبياء قبله وأنزل عليه الإنجيل وأمر من بعثه إليه بالعمل بما فيه ، ثم ذكر نبينا محمداً ﷺ ، وأخبره أنه أنزل إليه الكتاب مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ، وأمره بالعمل بما فيه والحكم بما أنزل إليه فيه دون ما في سائر الكتب غيره ، وأعلمه أنه قد جعل له ولأمته شريعة غير شرائع الأنبياء والأمم قبله الذين قص عليه قصصهم ، وإن كان دينه ودينهم ، في توحيد الله والإقرار بما جاءهم به من عند الله

(١) تفسير الطبري ١٩٢/٣ ـ ١٩٣ ، تحقيق محمود شاكر ، تفسير ابن كثير ١٩٥/١ .

(٢) سورة المائدة ، آية [٤٨] .

(٣) انظر : الطبري ٢٦٩/٦ ـ ٢٧٠ ، ابن كثير ٦٧/٢ ، معالم التنزيل : للبغوي ٧٠/٢ ، ٢٣١/٧ ، فتح الباري : لابن حجر ٤٦/١ و٤٨ ، ٢٦٩/٦ .

(٤) سبقت .

والانتهاء إلى أمره ونهيه واحداً ، فهم مختلفو الأحوال فيما شرع لكل واحد منهم ولأمته فيما أحل لهم وحرم عليهم ، فقال سبحانه ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾(١) .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ : وأما تنوع الشرائع وتعددها ، فقال تعالى لما ذكر القبلة بعد الملة بقوله ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ ﴾(٢) إلى قوله ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ ﴾(٣) فأخبر أن لكل أمة وجهة ، ولم يقل : جعلنا لكل أمة وجهة : بل قد يكون هم ابتدعوها كما ابتدعت النصارى وجهة المشرق ، بخلاف ما ذكره في الشرع والمنهاج ، فإنه قال ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾(٤) إلى قوله ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾(٥) .

وهذه الآيات نزلت بسبب الحكم في الحدود والقصاص والديات ، أخبر الله تعالى أن التوراة يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا

---

(١) سورة المائدة ، الآيات [٤٤ ــ ٤٨] .

(٢) سورة البقرة ، آية [١٤٨] .

(٣) سورة المائدة ، آية [٤١] .

(٤) سورة المائدة ، آية [٥٠] .

والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله ،. وهذا عام في النبيين جميعاً والربانيين والأحبار ، ثم لما ذكر الإنجيل قال ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ﴾[1] فأمر هؤلاء بالحكم ، لأن الإنجيل بعض ما في التوراة وأقرَّ الأكثر ، والحكم بما أنزل الله فيه حكم بما في التوراة أيضاً . ثم قال ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[2]

فأمره أن يحكم بما أنزل الله على من قبله ، لكل جعلنا من الرسوليين والكتابيين شرعة ومنهاجاً ، أي سنَّة وسبيلاً ، فالشرعة : الشريعة ، وهي السنَّة ، والمنهاج : الطريق والسبيل . وكان هذا بيان وجه تركه لما جعل لغيره من السنَّة والمنهاج إلى ما جعل له ، ثم أمره أن يحكم بينهم بما أنزل الله إليه : فالأول : نهي له أن يأخذ بمنهاج غيره وشرعته .

والثاني : وإن كان حكماً غير الحكم الذي أنزل ، نهيٌ له أن يترك شيئاً مما أنزل فيها اتباع محمد ﷺ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ، فمن لم يتبعه لم يحكم بما أنزل الله ، وإن لم يكن من أهل الكتاب الذين أمروا أن يحكموا بما فيها مما يخالف حكمه[3] .

وكما أمر الله تعالى نبينا محمداً ﷺ في هذه الآيات أن يحكم بما أنزل الله إليه دون ما في سائر الكتب ، أمره كذلك مرة أخرى أن يحكم بهذه الشريعة التي جعلها الله له ، من بعد الذي آتاه بني إسرائيل الذين وصف له صفتهم في اختلافهم بغياً بينهم ، فقال سبحانه ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾

---

(١) سبقت .

(٢) سبقت .

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١١٢/١٩ ــ ١١٣ ، وهي منشورة مجموعة الرسائل المنيرية ١٢٨/٣ ــ ١٦٥ قاعدة في توحد الملة وتعدد الشرائع .

وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِۖ فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[1] .

ويقول الشيخ ولي الله الدهلوي : إن أصل الدين واحد اتفق عليه الأنبياء عليهم السلام ، وإنما الاختلاف في الشرائع والمناهج ، تفصيل ذلك : أن الأنبياء عليهم السلام أجمعوا على توحيد الله تعالى : عبادةً واستعانةً ، وتنزيهه عما لا يليق بجنابه ، وتحريم الإلحاد في أسمائه ، وأن حق الله على عباده أن يعظِّموه تعظيماً لا يشوبه تفريط ، وأن يسلموا وجوههم وقلوبهم إليه ، وأن يتقربوا بشعائر الله إلى الله ، وأنه قدر جميع الحوادث قبل أن يخلقها ، وأن لله ملائكة لا يعصون الله فيما أمر ويفعلون ما يؤمرون ، وأنه ينزل الكتاب على من يشاء من عباده ، ويفرض طاعته على الناس . . . فهذا أصل الدين ، ولذلك لم يبحث القرآن العظيم عن لميَّة هذه الأشياء ، إلا ما شاء الله ، فإنها كانت مسلّمة فيمن نزل القرآن بألسنتهم ، وإنما الاختلاف في صور هذه الأمور وأشباهها ، فكان في شريعة موسى عليه السلام الرجم فقط ، وجاءت شريعتنا بالرجم للمحصن والجلد لغيره ، وجاء في شريعة موسى عليه السلام القصاص فقط ، وجاءت شريعتنا بالقصاص والدية جميعاً ، وعلى ذلك اختلافهم في أوقات الطاعات وآدابها وأركانها .

وبالجملة : فالأوضاع الخاصة التي مهدت وبينت بها أنواع البر والارتفاقات هي الشرعة والمنهاج[3] .

---

(١) سورة الجاثية ، الآيات [١٦-١٨] . (٢) حقيقة الأشياء وكنهها .

(٣) انظر : حجة الله البالغة : للدهلوي ١/٨٦ - ٨٧ .

كل دين عقيدة ومنهج حياة :

فظهر بذلك أن كل دين من عند الله تعالى يتضمن جانبين اثنين : العقيدة والشريعة ، إذ أن طبيعة الدين ، أي دين ، أن يتضمن تنظيماً لحياة الناس بالتشريع ، وألا يقتصر على الجانب العقدي أو التهذيبي الأخلاقي ، ولا على المشاعر الوجدانية وحدها ، ولا على العبادات والشعائر وحدها كذلك ، فهذا لا يكون ديناً ، فما الدين إلا منهج الحياة الذي أراده الله للبشر ، ونظام الحياة الذي يربط حياة الناس بمنهج الله ، ولا يمكن أن ينفك عنصر العقيدة الإيمانية عن الشعائر التعبدية عن القيم الخلقية عن الشعائر التنظيمية في أي دين يريد أن يصرّف حياة الناس وفق المنهج الإلٰهي ، وأي انفصال لهذه المقومات يُبْطل عملَ الدين في النفوس وفي الحياة ويخالف مفهوم الدين وطبيعته ، كما أراده الله سبحانه[1] .

وإذا كانت العقيدة ــ كما سبق ــ واحدة لا تختلف فإن الشريعة لكل قوم مباينة لغيرها من الشرائع ، وبكلا الجانبين جاءت الآيات القرآنية الكريمة ولا تعارض بينها إذ أن كل آية دلت على عدم التباين في الدين فهي دالة على أصول الدين ، وأما الآيات الدالة على حصول التباين فمحمولة على الفروع وما يتعلق بظواهر العبادات ، فجائز أن يتعبّد الله عباده في كل وقت بما يشاء[2] .

هل اسم الإسلام خاص بهذه الأمة ؟

ووقع النزاع بعد ذلك في اختصاص اسم الإسلام بهذه الأمة ، هل

(١) انظر : الظلال ٤٠٠/٣ ، المستقبل لهذا الدين ٣ ، ٢٦ ، خصائص التصور الإسلامي . ١٣٠ ــ ١٣٥ ، الإسلام على مفترق الطرق : لمحمد أسد ١٧ ــ ٢٥ .

(٢) تفسير الخازن ٥٠/٢ ــ انظر : الفخر الرازي ١٤/١٢ ، فتح الباري ٤٩/١٥ ، شرح الطحاوية ٤٦٤ وما بعدها .

هو خاص بها أم يوصف به من سبقها من الأمم ويطلق على من آمن بنبيه من أمة موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء صلوات الله عليهم وعلى نبينا وتسليمه ؟

وللعلماء في هذه المسألة قولان مشهوران ، حكاهما غير واحد من الأئمة :

أحدهما : أنه يطلق الإسلام على كل دين حق ، ولا يختص بهذه الملة ، وبهذا أجاب ابن الصلاح ـ رحمه الله ـ فقال : يطلق اسم الإسلام على الجميع ، وهو اسم لكل دين حق لغة وشرعاً ، فقد ورد ذلك بألفاظ راجعة إلى هذا في كتاب الله تعالى[1] .

واستدل لهذا الرأي بقوله تعالى ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾[2] وبقوله تعالى ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾[3] وقوله تعالى ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾[4] .

وأجاب الإمام السيوطي عن ذلك أنه كان يطلق فيما تقدم على الأنبياء ، وما أُطلق على غيرهم إلا على سبيل التغليب أو على سبيل التبعية[5] .

والقول الثاني : أن الإسلام خاص بهذه الملة الشريفة ، ووصف المسلمين خاص بهذه الأمة المحمدية ، ولم يوصف به أحد من الأمم السابقة سوى الأنبياء فقط ، وقد خصت هذه الأمة من بين سائر الأمم

---

(١) فتاوى ابن الصلاح في التفسير والعقائد ، ص ٣٧ ، ضمن مجموعة الرسائل المنيرية ، في الجزء الرابع .

(٢) سورة الذاريات ، الآيتان [٣٥ ـ ٣٦] .

(٣) سورة البقرة ، آية [١٣٣] .

(٤) سورة يونس ، آية [٨٤] .

(٥) الحاوي للفتاوى : لجلال الدين السيوطي ٢/٢٢٤ .

بخصائص لم تكن لأحد سواها، إلا للأنبياء فقط.

ومن الأدلة التي ترجح هذا القول: قوله تعالى ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾[1]، فلو لم يكن قوله سبحانه ﴿ **هو سماكم المسلمين** ﴾ خاصاً بهذه الأمة، كالذي ذكر قبله من الهداية ورفع الحرج، لم يكن لتخصيصه بالذكر ولاقترانه بما قبله معنى.

ولم يذكر الله سبحانه بالإسلام غير هذه الأمة، ولم نسمع بأمة ذكرت بالإسلام غيرها، ونصوص أئمة السلف المفسرين من الصحابة وغيرهم من التابعين وأتباعهم: إن الله تعالى سمّى هذه الأمة «المسلمين» في اللوح المحفوظ وفي التوراة والإنجيل وسائر الكتب المنزلة وفي القرآن الكريم، فإنه اختصهم بهذا الاسم من بين سائر الأمم فلا يُدْعون إلا به[2]، كما قال رسول الله ﷺ: **(من دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جثى جهنم)**، قالوا: يا رسول الله وإن صام وإن صلَّى؟ قال: **(نعم، وإن صام وإن صلى وزعم أنه مسلم، فادعوا المسلمين بأسمائهم، بما سماهم الله عز وجل: المسلمين المؤمنين، عباد الله عز وجل)**[3].

---

(١) سورة الحج، آية [٧٨].

(٢) انظر: الحاوي: للسيوطي ٢/ ٢١٥ - ٢١٧، تفسير الطبري ١٧/ ٢٠٧ - ٢٠٨، تفسير ابن كثير ٢/ ٢٣٧، روح المعاني: للآلوسي ١٧/ ٢١٠.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤/ ١٠٣ و٥/ ٣٤٤، والترمذي في الأمثال ٤/ ٢٢٦-٢٢٧ وقال: حسن صحيح غريب، والطيالسي في مسنده ص١٥٩-١٦٠، وصححه الحاكم في المستدرك: ١/ ١١٧، ٣٢٦. وعزاه المنذري في «الترغيب والترهيب»: ١/ ٣٦٩ لابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما.
وقال ابن كثير في التفسير ١/ ٥٩ هذا حديث حسن وعزاه النسائي في ٣/ ٢٣٧، وأخرج الآجري في الشريعة قطعة منه بإسناده ص٨ وانظر: الدر المنثور للسيوطي: ٨/ ١٨.
وقوله من جثي جهنم - وفي المسند جثاء - أي من جماعاتها، والجُثوة: ما جمع من تراب وغيره، فاستعيرت، وروي: «جثيّ» وهو جمع جاثٍ، من قوله تعالى ﴿ حول جهنم جثياً ﴾. انظر: الفائق: للزمخشري ١/ ١٩٠، ترتيب القاموس المحيط ١/ ٤٤٥.

وقال الله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾[1] ، دعا بذلك لنفسه ولولده ، وهما نبيان ، ثم دعا به لأمة من ذريته ، وهي هذه الأمة ، أمة محمد ﷺ ، ولهذا قال عقب ذلك ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾[2] وهو النبي محمد ﷺ ، بالإجماع ، فاستجاب الله دعاءه بالأمرين : ببعث النبي محمد ﷺ فيهم[3] وتسميتهم مسلمين[4] .

وقال الله تعالى ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[5]

وهذه الآية ظاهرة في الاختصاص ، فإن تقديم « لكم » يستلزم الاختصاص ويفيد أنه لم يرضه لغيرهم ، فقد اختاره الله لنفسه ولهذه الأمة ، ويشير إلى هذا ما أخرجه البغوي بسنده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (**قال جبريل ، قال الله تعالى : هذا دين ارتضيته لنفسي ، ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق ، فأكرموه بهما ما صحبتموه**)[6] .

وأخرج إسحق بن راهويه في مسنده وابن أبي شيبة في مصنفه عن مكحول في حديث طويل ، وفيه : (**تسمى الله باسمين ، سمّى الله بهما أمتي ، هو السلام وسمى بها أمتي المسلمين ، وهو المؤمن وسمّى**

---

(١) سورة البقرة ، آية [١٢٨] .

(٢) سورة البقرة ، من آية [١٢٩] .

(٣) في حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه : «أنا دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى ورؤيا أمي التي رأت» أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤/١٢٧ ، ١٢٨ ، والبزار والطبراني ، قال الهيثمي ، وأحد أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح : مجمع الزوائد ٨/٢٢٣ .

(٤) الحاوي : للسيوطي ٢/٢١٧-٢١٨ ، الطبري ٣/٧٤ - ٧٥ وتعليق الشيخ شاكر ، ابن كثير ١/١٨٤ ، تفسير أبي السعود ١/٢٦٠ .

(٥) سورة المائدة ، آية [٣] .

(٦) تفسير البغوي ، ٢/٩-١٠ ، وأخرجه الطبراني في الأوسط ، والأصبهاني . وفيه عمرو العقيلي وهو متروك . انظر الترغيب والترهيب : ٣/٣٨٣-٣٨٤ ، مجمع الزوائد : ٣/٢٤٨ ، سلسلة الأحاديث الضعيفة : ٣/٤٤١-٤٤٢ .

وراجع الطبري ٩/٥٢٣ (طبعة شاكر) ، البحر المحيط ٣/٤٢٦ ، الحاوي : للسيوطي ، نفس الموضع .

بها أمتي المؤمنين)[١] . قال السيوطي : وهذا الحديث صريح في اختصاص أمته ﷺ بوصف الإسلام ، ولذلك أطبقت ألسنة الخلق كلهم من الصحابة والتابعين وأتباعهم والمجتهدين والفقهاء والعلماء على اختلاف فنونهم ، والمسلمين بأسرهم ، واليهود والنصارى والمجوس وسائر الفرق حتى الحيوانات والشجر والحجر في آخر الزمان على تسمية من كان على دين موسى يهودياً ، ومن كان على دين عيسى نصرانياً ، ومن كان على دين نبينا محمد ﷺ مسلماً[٢] لا يمتري في ذلك أحد ، وما كان هذا عن فساد ، بل هو الحق المطابق للواقع[٣] .

تحرير محل النزاع :

ونضع هنا كلمة قيمة لابن تيمية ــ رحمه الله ــ يحرر فيها محل النزاع ، قال : وقد تنازع الناس فيمن تقدم من أمة موسى وعيسى ، هل هم مسلمون أم لا ؟

وهو نزاع لفظي ، فإن الإسلام الذي بعث الله به محمداً ﷺ المتضمن لشريعة القرآن : ليس عليه إلا أمة محمد ﷺ ، والإسلام اليوم عند الإطلاق يتناول هذا ، وأما الإسلام العام المتناول لكل شريعة بعث الله بها نبياً فإنه يتناول إسلام كل أمة متبعة لنبي من الأنبياء[٤] .

---

(١) أخرجه إسحاق بن راهوية في مسنده وابن أبي شيبة في مصنفه ، وسكت عليه البوصيري . انظر : المطالب العالية لابن حجر : ٥٣/٤ ، الدر المنثور للسيوطي : ٨١/٨ .

(٢) في حديث أبي هريرة عن قتال المسلمين لليهود قبل قيام الساعة وفيه : «فيقول الحجر والشجر : يا مسلم يا عبدالله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود» أخرجه البخاري في الجهاد ١٠٣/٦ ، ومسلم في الفتن ٢٢٣٩/٤ وأحمد في المسند ٦٧/٢ وفي حديث أبي أمامة عند ابن ماجه « . . . فلا يبقى شيء مما خلق الله يتوارى به يهودي إلا أنطق الله ذلك الشيء ، لا حجر ولا شجر ولا حائط ولا دابة إلا قال : يا عبدالله يا مسلم . . .» ابن ماجه في الفتن ١٣٥٩/٢ـ١٣٦٢ .

(٣) الحاوي للفتاوى : للسيوطي ٢٢٩/٢ ، ٢٢٣ .

(٤) الرسالة التدمرية لابن تيمية : ١١٣ ، وهي نفسها في مجموع الفتاوي ١/٣ـ١٢٨ .

لماذا سُمِّيَ الدين بالإسلام؟

إن جميع ما في الأرض من مختلف الديانات إنما سمّيت بأسمائها إما نسبة إلى اسم رجل خاص أو أمة معينة ظهرت وترعرعت بين ظهرانيها أو بلد نشأت فيها ، فاليهودية سميت بهذه الاسم نسبة إلى أرض اليهودية ، أو لأنها ظهرت بين ظهراني قبيلة تعرف بيهودا وهو اسم أحد أسباط يعقوب عليه السلام ويسمى أتباعها : الموسويين نسبة إلى موسى عليه السلام .

والنصرانية : سميت بهذا الاسم نسبة إلى بلدة الناصرة ، بلد المسيح عليه السلام ، وتسمى أيضاً المسيحية نسبة إلى المسيح عليه السلام وإليه أيضاً ينسب أتباعه فيقال : المسيحيون .

وهكذا اشتهرت أيضاً البوذية مثلاً بهذا الاسم نسبة إلى بوذا ، وهو لقب باني هذه النحلة ، وكذلك الزرادشتية أخذت اسمها من حامل لوائها زرادشت .

أما الإسلام ، الدعوة العامة للناس جميعاً التي ختم الله تعالى بها الرسالات السابقة كلها ، فإنه لا ينتسب إلى أمة بعينها ، ولا إلى بلد ظهر فيه ، ولا إلى النبي الذي أنزله الله عليه ، وإنما يدل اسمه على صفة خاصة يتضمنها معنى كلمة الإسلام .

ومما يظهر من هذا الاسم : أنه ما عني بإيجاد هذا الدين وتأسيسه رجل من البشر ، وليس خاصاً بأمة معينة دون سائر الأمم ، وإنما غايته أن يحلي أهل الأرض جميعاً بصفة الإسلام[1] .

---

(١) انظر : مبادئ الإسلام : لأبي الأعلى المودودي ٥ ، دعوة الحق أو الحقيقة بين المسيحية والإسلام : للقاضي منصور حسين عبد العزيز ٥٣٧ ، ٥٤٨ ، الله واحد : لمحمد مجدي مرجان ١٥٧ ، ١٥٨ .

وهذه الأمة ... الأمة المسلمة :

وكما اختص الله تعالى هذا الدين باسم الإسلام ، اختص أيضاً هذه الأمة باسم « الأمة المسلمة » وباسم « المسلمين » ومن خلال هذا الاختصاص نلمح جملة معانٍ بارزة كانت وراء ذلك الاختصاص بهذا الاسم .

ففي ذلك تكريم وتشريف لهذه الأمة على غيرها ، حيث اختصها الله تعالى باسم أطلقه على أنبياء الأمم السابقة ، فكانوا هم المسلمين ، وهذه الأمة هي الأمة المسلمة ، وبذلك تتأكد وشائج الصلة بين هذه الأمة وبين من سبقها ، فهي ليست مقطوعة النسب ، وليست بدعاً بين الأمم .

كما جاءت هذه التسمية والاختصاص بها استجابة لدعاء إبراهيم عليه السلام حيث قال وهو يرفع القواعد من البيت وإسماعيل ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾[1] فالذرية المسلمة والأمة المسلمة من نسل إبراهيم عليه السلام ، وهو الذي سماها أيضاً بهذا الاسم ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾[2] .

واشتملت شريعة الإسلام على فواضل العبادات مما انفردت به بين الرسالات من الجهاد والحج والوضوء والغسل من الجنابة ونحو ذلك مما اختصت به الأمة المسلمة ولم يكتب على غيرها من الأمم ، وإنما كتب على الأنبياء فقط[3] .

---

(١) سورة البقرة ، آية [١٢٨] .

(٢) سورة الحج ، آية [٧٨] .

(٣) اقرأ ــ إن شئت ــ الإعلام بمناقب الإسلام : لأبي الحسن العامري ١٢٩ ــ ١٨٥ ، الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن دين الإسلام : للإمام القرطبي ٤٣٨ وما بعدها ، ففيهما أبحاث نفيسة في مزايا الإسلام في مجالات شتى .

وفي هذه الأمة تحقق معنى الإسلام ، الذي هو الاستسلام والانقياد والإذعان لله رب العالمين ولم تذعن أمة لنبيها كما أذعنت هذه الأمة وقبلت ما جاء به من عند الله وانقادت له بلا اعتراض فاستحقت لهذا كله الاختصاص باسم الأمة المسلمة وكانت جديرة بأن تكون ، كما أراد الله تعالى لها ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ .

وهذا كله يلقي على عاتق هذه الأمة واجبات عظام ومسؤوليات كبيرة ، ينبغي أن تقدرها حق قدرها وأن تحملها بقوة لتقوم بدور القيادة والريادة لهذه البشرية ، والشهادة على سائر الأمم ، ولن يكون ذلك إلا بعودة صادقة إلى منابع القوة والعز والتمكين ، وذلك بالتمسك بهذا الدين عقيدةً وعبادة وشريعة كاملة للحياة ، وعندئذ يتحقق وعد الله سبحانه ، ولن يخلف الله وعده أبداً ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[1] .

والحمد لله رب العالمين .

---

(١) سورة النور ، آية [٥٥] .

الاسـلام وعلاقتـه
بالشـرائع الاخـرى

دعوة عالمية بلغت ذروة الكمال :

شاء الله عز وجل أن تكون رسالة محمد ، ﷺ ، خاتمة الرسالات السماوية ، والتي اختصت عرفاً بمدلول كلمة الإسلام كما أن كلمة « اليهودية » أو « الموسوية » تخص شريعة موسى ، عليه السلام ، وما اشتق منها ، وكلمة « النصرانية » أو « المسيحية » تخص شريعة عيسى عليه السلام وما تفرع عنها .

وهذه الرسالة التي أنزلها الله على نبينا محمد ، ﷺ ، بلغت ذروة الكمال ، وجاءت دعوة إنسانية عالمية ، لا تخاطب قوماً بأعيانهم ، ولا جنساً بذاته ، رضيها الله تعالى للناس ديناً ، فكانت هي « الدين » الكامل الذي أتم الله تعالى به علينا نعمته ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا** ﴾(١) .

وبعد أن كان الموكب الكريم من الرسل والأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ يرفع راية التوحيد ، ويهتف كلٌ بقومه : ﴿ **ياقوم إنّي لكم**

---

(١) سورة المائدة ، من الآية [٣] .

نذيرٌ مُّبينٌ﴾(١)، **﴿ياقوم اعبدوا اللَّه مالكم من إلٰه غيره﴾**(٢)... الخ ـ جاء خاتم النبيين وجامع كلمة المرسلين فجمع الرايات كلها تحت راية واحدة، وجعل ينادي الناس جميعاً: **﴿ياأيُّها النَّاس آعبدوا ربَّكم الَّذي خلقكم والَّذين من قبلكم لعلَّكم تتَّقون﴾**(٣)، **﴿ياأيُّها النَّاس قد جآءكم برهانٌ مِّن رَّبكم﴾**(٤)، **﴿هٰذا بلاغٌ لِّلنَّاس ولينذروا به﴾**(٥)، بل هو بلاغ لكل من بلغه خبره وانتهى إليه أمره في عصره وفي سائر العصور إلى يوم القيامة: **﴿وأوحي إليَّ هٰذا القرآن لأنذركم به ومَنْ بلغ﴾**(٦)، والجنّ والإنس في هذا الخطاب والبلاغ سواء(٧) **﴿يامعشر الجنِّ والإنس﴾**(٨).

وقد فصّل الله تعالى في القرآن الكريم سمات هذه الدعوة العالمية العامة، وعرضها على أعين الناس في كثير من آياته، فقال تعالى: **﴿قل ياأيُّها النَّاس إنِّي رسول اللَّه إليكم جميعاً الَّذي له ملك السَّمٰوات والأرض لآ إلٰه إلاَّ هو يحيي ويميت فئامنوا باللَّه ورسوله النَّبيِّ الأمِّيِّ الَّذي يؤمن باللَّه وكلماته واتَّبعوه لعلكم تهتدون﴾**(٩)، **﴿وما أرسلناك**

---

(١) سورة نوح، الآية [٢].
(٢) سورة الأعراف، من الآية [٥٩].
(٣) سورة البقرة، الآية [٢١].
(٤) سورة النساء، من الآية [١٧٤].
(٥) سورة إبراهيم، من الآية [٥٢].
(٦) سورة الأنعام، من الآية [١٩].
(٧) للإمام ابن تيمية رسالة عنوانها «إيضاح الدلالة في عموم الرسالة» في الفتاوى ١٩/٩ ـ ٦٥، وقد نشرها الشيخ محمد منير الدمشقي في المجلد الثاني من مجموعة الرسائل المنيرية. وانظر أيضا: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ١/١٦٦ وما بعدها.
(٨) سورة الأنعام، من الآية [١٣٠]، وسورة الرحمن، من الآية [٣٣].
(٩) سورة الأعراف، الآية [١٥٨].

إلاَّ كآفَّةً لِّلنَّاس بشيراً ونذيراً ولكنَّ أكثر النَّاس لا يعلمـون﴾(١)، ﴿ يأيُّها النَّاس قد جآءكم الرَّسول بالحقِّ مِنْ رَّبكم فئامنوا خيراً لَّكم وإن تكفروا فإنَّ للَّه مافي السَّمٰوات والأرض ﴾(٢)، ﴿ تبارك الَّذي نزَّل الفرقان علىٰ عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾(٣).

وأشار رسول الله ﷺ، إلى عموم بعثته وعالمية دعوته فقال: « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي: كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى كل أحمر وأسود، وأُحلّت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض طيِّبة وطهوراً ومسجداً، فأيّما رجل أدركته الصلاة صلّى حيث كان، ونُصرت بالرُّعب بين يدي مسيرة شهر. وأُعطيت الشفاعة »(٤).

وقال عليه الصلاة والسلام: « فُضِّلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرُّعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون »(٥).

خاتـم النبييـن:

ومن ثم كان محمد ـ ﷺ ـ خاتم الأنبياء والمرسلين، وكانت

---

(١) سورة سبأ، الآية [٢٨].
(٢) سورة النساء، من الآية [١٧٠].
(٣) سورة الفرقان، الآية [١].
(٤) أخرجه البخاري، ٤٣٦/١ في التيمم ومسلم، واللفظ له، ٣٧٠/١ كتاب المساجد وفي رواية أخرى بلفظ « وأُرسلت إلى الخلق كافة » والنسائي ٢١٠/١ ـ ٢١١ في الغسل ـ والدارمي ٣٢٢/١ في الصلاة. والأجري في الشريعة ٤٩٨، وانظر مجمع الزوائد ٢٥٨/٨، ٢٥٩.
(٥) أخرجه مسلم ٣٧١/١ في المساجد، والترمذي ٥٦/٣ في السير، وأحمد في المسند ٤١٢/٢، وانظر: إرواء الغليل للألباني ٣١٥/١ ـ ٣١٧.

رسالته خاتمة الرسالات جميعاً : ﴿ **مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ** ﴾(١).

ويصور الرسول الكريم ﷺ ختم رسالته للرسالات السابقة، وكيف أتم البناء الذي تعاقبت عليه رسل الله الكرام، فيقول : « مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتاً، فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية [من زواياه] فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون : هلاّ وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين »(٢).

ودعوته ناسخة للرسالات السابقة :

وإذا كان محمد ﷺ قد أرسل من عند الله تعالى بدين بلغ ذروة الكمال الذي لا كمال بعده، وتوجه الخطاب فيه للعالمين كافة، وختم الله به الرسالات، فإن النتيجة المنطقية اللازمة لهذا الكمال ولتمام النعمة أنه تنقطع صلة الإنسانية عن سائر الرسالات والنبوات السابقة في طاعتها واتباعها ـ مع الإيمان بأصولها المنزلة ـ لا بما آلت إليه بعد التحريف على يد الأتباع.

فكل ما جاء به الأنبياء السابقون وعرضوه على الإنسانية ودَعَوْها إلى اتباعه، قد نُسخ برسالة محمد ﷺ، وما من شك أن الإيمان بنبوتهم وصدق دعوتهم على وجه الإجمال لازم لابد منه، إذ ما كانوا إلا دعاة

---

(١) سورة الأحزاب، الآية [٤٠].

(٢) أخرجه البخاري ٥٥٨/٦ في المناقب، ومسلم ١٧٩٠/٤ في الفضائل، والترمذي ٢٢٥/٤ في الأمثال، وأحمد في المسند ١٣٧/٢. والآجري في الشريعة ٤٥٧، والطبراني في الأوسط، مجمع الزوائد ٢٦٩/٨. ولأبي الأعلى المودودي كتاب ختم النبوة في ضوء الكتاب والسنة، وللندوي : النبي الخاتم.

إلى الإسلام ، وما التصديق بدعوتهم إلا تصديق بالإسلام ولكن ، مع ذلك ، فقد انقطعت عنهم صلة الإنسانية في طاعتها واتباعها فعلاً ، وإنما ارتبطت برسالة محمد ﷺ وتعليمه وأسوته الحسنة ، لأن الذي يقتضيه المبدأ :

أولاً : أن لا تعود الإنسانية بحاجة إلى الناقص بعد أن جاءها الكامل .

وثانياً : أنه قد لعبت يد التحريف والإهمال بسيرة وتعاليم الأنبياء السابقين[1] مما لم يعد من الممكن ، لأجله ، أن تتبعهم الإنسانية فعلاً .

ومن هنا ، فإن القرآن الكريم حيثما يأمر بطاعة الرسول واتباع أحكامه وأوامره ، لا يأتي بكلمة « الرسول » و « النبي » إلا معرّفتين بالألف واللام ـ لتكونا خاصتين بمحمد ﷺ[2].

يقول الله تعالى مثلاً : ﴿ **وأطيعوا اللَّه والرَّسول لعلَّكم ترحمون** ﴾[3]، ويقول : ﴿ **أطيعوا اللَّه وأطيعوا الرَّسول وأولي الأمر منكم** ﴾[4]، ويقول أيضاً : ﴿ **مَّن يطع الرَّسول فقد أطاع اللَّه** ﴾[5].

والقرآن الكريم مهيمن على الكتب السابقة :

وكذلك فإن القرآن الكريم قد جعله الله تعالى مهيمناً على ما سبقه

---

(١) اقرأ ـ إن شئت ـ إظهار الحق للشيخ رحمة الله العثماني ٢٠٧ ـ ٢٩٨ ، الرسالة الخالدة للسيد سليمان الندوي ٤١ ـ ٦٨ ، المسيح في مصادر العقائد المسيحية للمهندس أحمد عبد الوهاب ٧٧ وما بعدها ، محاضرات في النصرانية للشيخ محمد أبي زهرة ٧٧ وما بعدها ، الجواب الصحيح لابن تيمية ٣٦٢/١ وما بعدها و ٣/٢ ـ ٢٧ .

(٢) انظر : الإحكام في أصول الأحكام ـ لابن حزم ٧٣٢/٢ ـ ٧٤٣ ، كشف الأسرار للبخاري ١٥٨/٣ ـ ١٦٢ ، الحضارة الإسلامية للمودودي ١٩٢ ـ ١٩٦ ، **الأسفار المقدسة في الأديان** السابقة د . علي عبد الواحد وافي ٨٧ ـ ٩٢

(٣) سورة آل عمران ، الآية [١٣٢] .

(٤) سورة النساء ، من الآية [٥٩] .

(٥) سورة النساء ، من الآية [٨٠] .

من الكتب السماوية ، وهو كلمة الله الأخيرة لهذه البشرية ، التي يجب أن يفيء إليها الناس كلهم حتى يكونوا مؤمنين ، ومن ثم فكل اختلاف يجب أن يُرد إلى هذا الكتاب ليفصل فيه ، سواء كان هذا الاختلاف في التصور الاعتقادي بين أصحاب الديانات السماوية ، أو في الشريعة التي جاء هذا الكتاب بصورتها الأخيرة ، أو كان هذا الاختلاف بين المسلمين أنفسهم ، قال الله تعالى : ﴿ **وأنزلنآ إليك الكتاب بالحقِّ مصدِّقاً لِّما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه** ﴾[1].

وكما استعمل الله تعالى كلمتي « الرسول » و « النبي » معرفتين عند الأمر بطاعتهما ، لتكون خاصة بمحمد ﷺ ودالّة على كماله ، كذلك جاء لفظ « الكتاب » في هذه الآية للدلالة على القرآن الكريم الدلالة نفسها ، فهو الكتاب الكامل الجدير بأن يسمى كتاباً ، وأن ينصرف إليه معنى الكتاب الإلٰهي الكامل الصادق عند الإطلاق ، لحيازته جميع الأوصاف الكمالية لجنس الكتاب السماوي ، وتفوّقه على بقية أفراده ، بعد أن استعمل ، في الآيات السابقة لهذه الآية ، لفظ التوراة والإنجيل للكتابين الذين أنزلهما الله على موسى وعيسى عليهما السلام[2].

معنى هيمنة القرآن على ما سبقه :

وقد تنوعت عبارات المفسرين ، من السلف ومن بعدهم رحمهم الله تعالى ، في التعبير عن معنى هذه الهيمنة ، فقالوا :

مهيمناً : أي مؤتمناً وشاهداً ورقيباً ، وحاكماً وقاضياً ، ودالّاً ومصدقاً ، فالقرآن الكريم أمين على كل كتاب قبله ، في أصله المنزَّل ،

---

(١) سورة المائدة ، من الآية [٤٨] .

(٢) انظر : الظلال ٩٠٢/٦ ، تفسير أبي السعود ٦٧/٢ ، تفسير المنار لرشيد رضا ٤١٠/٦ .

وهو بهذا حافظ لهذا الأصل لأنه يبين ما طرأ عليه من انحراف وماوافقه من الكتب المتداولة فهو حق ، ويجوز أن تكون نسبته إلى الله تعالى صحيحة ، وما خالفه وناقضه فهو باطل ، ولا تكون نسبته إلى الله تعالى صحيحة ، ويكون قد طرأ على الكتاب الذي فيه تلك المخالفة والتناقض : تبديلٌ وتحريف . وما جاء في القرآن الكريم ، ولم يكن في الكتب المتداولة في أيديهم ، المنسوبة إلى الله تعالى ، فيكون ما جاء في القرآن هو الحق .

والقرآن الكريم شاهد على ما في تلك الكتب ، يشهد لأصولها المنزلة بالصدق[1]، ويشهد عليها وعلى أصحابها بما وقعوا فيه من نسيان حظ عظيم وإضاعته ، وتحريف كثير مما بقي وتأويله ، والإعراض عن العمل بها ، كما نصت على ذلك آيات كثيرة في القرآن الكريم ـ وستأتي إشارات لذلك ـ .

والقرآن الكريم رقيب على سائر الكتب السماوية المحفوظة عن التغيير ، حيث يشهد لها بالصحة والثبات ، ويقرر أصول شرائعها وما يتأبد من فروعها ، ويعين أحكامها المنسوخة ببيان انتهاء مشروعيتها المستفادة من تلك الكتب وانقضاء وقت العمل بها .

ولا ريب في أن تمييز أحكامها الباقية على المشروعية أبداً عما انتهى وقت مشروعيته وخرج عنها من أحكام : هو معنى من معاني الهيمنة

---

(١) يقول الشريف الرضي « وفي آية المائدة ﴿ **مهيمناً عليه** ﴾ : استعارة ـ والمراد : أن ما في الكتاب من وضوح الدلالة يقوم مقام النطق » . تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي ص ٣١ .

عليها ، فالقرآن حاكم على ما في تلك الكتب وقائم عليها وقاضٍ عليها بالحق[1]

وهذه الأقوال ، في معنى الهيمنة ، متقاربة المعنى ، فإن اسم المهيمن يتضمن هذا كله ، فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله ، جعل الله تعالى هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها وأشملها وأعظمها وأكملها ، حيث جمع فيه محاسن ما قبله ، وزاده من الكمالات ماليس في غيره ، وهو الكتاب الذي لا يُنسخ ولا يغيَّر . ولهذا جعله الله تعالى شاهداً وأميناً وحاكماً على ما سبقه من الكتب ، وتكفل ـ سبحانه ـ بحفظه ، وإذا كان بهذه المثابة ، كانت شهادته على التوراة والإنجيل والزبور وسائر الكتب المنزلة : حقاً وصدقاً[2].

وجوه هذه الهيمنة :

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ : فالسلف كلهم متفقون على أن القرآن هو المهيمن ، المؤتمن الشاهد على ما بين يديه من الكتب ، ومعلومٌ : أن المهيمن على الشيء أعلى منه مرتبة . ومن أسماء الله تعالى « المهيمن » ، ويسمى الحاكم على الناس ، القائم بأمورهم : « المهيمن » .. وقال بعض أهل اللغة : الهيمنة ، القيام على الشيء والرعاية له ، وأنشد :

---

(١) انظر في هذه المعاني : تفسير الطبري ٦/٢٦٦ ـ ٢٦٨ ، ابن كثير ٢/٦٦ ، أحكام القرآن للجصاص ٤/٩٧ ، تفسير البغوي ٢/٤٩ ، تفسير أبي السعود ٢/٦٧ ، تفسير الآلوسي ٦/١٥٢ ، تفسير المنار ٦/٤١٠ ـ ٤١١ ، ١٠/١٤٠١ ، غريب الحديث للخطابي ٢/٩٠ ـ ٩١ ، القرآن والمبشرون للشيخ محمد عزة دروزة ٤٥٥ .

(٢) ابن كثير ٢/٦٦ ، تفسير الخازن ٢/٤٩ ـ ٥٠ ، الفخر الرازي ١٢/١٦ .

ألا إنّ خير الناس بعد نبيهم مهيمنُه التالِيه في العرف والنكر

يريد : القائم على الناس بالرعاية لهم ...

وهكذا القرآن ،فإنه :

أ ـ قرر ما في الكتب المتقدمة من الخبر عن الله وعن اليوم الآخر وزاد ذلك بيانا وتفصيلا .

ب ـ وبيّن الأدلة والبراهين على ذلك .

جـ ـ وقرر نبوة الأنبياء كلهم ورسالة المرسلين .

د ـ وقرر الشرائع الكلية التي بُعثت بها الرسل .

هـ ـ وجادل المكذبين بالكتب والرسل ، جادلهم بأنواع الحجج والبراهين .

و ـ وبيّن عقوبات الله لهم ، ونَصْرَه لأهل الكتب المتبعين لها .

ز ـ وبيّن ما حرف منه وبُدّل ، وما فعله أهل الكتاب في الكتب المتقدمة ، وبين أيضاً ما كتموه مما أمر الله ببيانه ، وكل ما جاءت به النبوات بأحسن الشرائع والمناهج التي نزل بها القرآن ، فصارت له الهيمنة على مابين يديه من الكتب من وجوه متعددة .

فهو شاهد بصدقها ، وشاهد بكذب ما حُرّف منها ، وهو حاكم بإقرار ماأقرّه الله ، ونسخ ما نسخه ، فهو شاهد في الخبريات ، حاكم في الأمريات .

وكذلك معنى « الشهادة » و « الحكم » يتضمن إثبات ما أثبته الله من صدق ومحكم ، وإبطال ما أبطله من كذب ومنسوخ . وليس الإنجيل مع التوراة ولا الزبور بهذه المثابة ، بل هي متبعة لشريعة التوراة إلا يسيراً

مما نسخه الله بالإنجيل[١] ، بخلاف القرآن . ثم إنه معجز في نفسه ، لا يقدر الخلائق أن يأتوا بمثله ، ففيه دعوة الرسول ، وهو آية الرسول وبرهانه على صدقه ونبوته وفيه ما جاء به الرسول ، وهو نفسه برهان على ما جاء به ...

ولهذا لم تحتج الأمة مع رسولها وكتابها إلى نبي آخر وكتاب آخر ، فضلاً عن أن تحتاج إلى شيء ـ لا يستقل بنفسه ـ غيرِه[٢].

ليظهره على الدين كله :

وقد أخبر الله سبحانه ووعد بإظهار هذا الدين على سائر الأديان فقال : ﴿ **هو الَّذي أرسل رسوله بالهدىٰ ودين الحقِّ ليظهره على الدِّين كلِّه ولو كره المشركون** ﴾[٣]. فالله تعالى يعلي هذا الدين ويرفع شأنه على جميع الأديان بالحجة والبرهان والهداية والعرفان ، والعلم والعمران ، وكذا السيادة والسلطان ، ولم يكن لدين من الأديان مثل هذا التأثير الروحي والعقلي والمادي والاجتماعي والسياسي إلا للإسلام[٤]. ولقد صح عن النبي عليه الصلاة والسلام الوعد بإظهار الدين ونصره والتمكين لأهله[٥]، وقد تحقق هذا الوعد الصادق بإذن الله .

دعوة أهل الكتاب للإيمان بمحمد :

ولأجل هذا فإن الله تعالى يأمر بالإيمان بمحمد ، ﷺ ، وطاعته

(١) في إنجيل متى أن المسيح قال لتلاميذه : « لا تحسبوا أني جئت لأَحُلَّ الناموس والأنبياء ، إني لم آت لأُحل ، لكن لأتمم الحق أقول لكم أنه إلى أن تزول السماء والأرض لا تزول ياء أو نقطة واحدة من الناموس » متى ٥/١٧ ـ ١٨ .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٧/٤٣ ـ ٤٥ .

(٣) سورة التوبة ٣٣ .

(٤) انظر تفسير المنار لرشيد رضا ١٠/١٧٥ .

(٥) ذكر الإمام ابن كثير جملة من هذه الأحاديث في التفسير ٢/٢٥٠ ـ ٢٥١ .

واتباع شريعته ، حتى الأمم المؤمنة برسالة نبي من الأنبياء السابقين فإن القرآن يوجه إليها هذا الخطاب أيضاً ، يقول الله تعالى : ﴿ **ياأهل الكتاب قد جآءكم رسولنا يبيّن لكم كثيراً مّمّا كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير قد جآءكم مّن اللّه نور وكتاب مّبين * يهدي به الله من اتّبع رضوانه سبل السّلام ويخرجهم مّن الظّلمات إلى النّور بإذنه ويهديهم إلى صراط مّستقيم** ﴾(١). ويقول سبحانه . ﴿ **الّذين يتّبعون الرّسول النّبيّ الأمّيّ الّذي يجدونه مكتوباً عندهم في التّوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحلّ لهم الطّيّبات ويحرّم عليهم الخبآئث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالّذين ءامنوا به وعزّروه ونصروه واتّبعوا النّور الّذيٓ أُنزل معهٓ أولٰئك هم المفلحون * قل ياأيّها النّاس إنّي رسول اللّه إليكم جميعاً الّذي له ملك السّمٰوات والأرض لآ إلٰه إلاّ هو يحيي ويميت فئامنوا باللّه ورسوله النّبيّ الأمّيّ الّذي يؤمن باللّه وكلماته واتّبعوه لعلكم تهتدون** ﴾(٢) .

تهديد ووعيد ...

ثم يأتي التهديد والوعيد الشديد لمن يعرض منهم عن الإيمان بما نزل الله تعالى على محمد ﷺ ﴿ **ياأيّها الّذين أوتوا الكتاب ءامنوا بما نزّلنا مصدّقا لّما معكم مّن قبل أن نّطمِس وجوهاً فنردّها علىٰ أدبارهآ أو نلعنهم كما لعنّآ أصحاب السّبت وكان أمر اللّه مفعولاً** ﴾(٣).

وتأتي سورة البينة لتقرر ما كان عليه أهل الكتاب والمشركون الذين كفروا برسالة محمد ﷺ من الانحراف عن دين الله ومنهجه ، وتقرر

(١) سورة المائدة ، الآيتان [١٥ ـ ١٦] .
(٢) سورة الأعراف ، الآيتان [١٥٧ ـ ١٥٨] .
(٣) سورة النساء ، الآية [٤٧] .

أنهم كانوا يعلّقون تحوّلهم وانفكاكهم عما هم عليه من الانحراف والكفر على بينة واضحة ، هي بعثة نبي جديد ، تكون سبب هدايتهم وتحويلهم عما هم عليه من ضلال وانحراف . ولكن عندما جاءتهم الهداية ممثلة بالكتاب المنزل : القرآن الكريم ، والنبي المرسل ، محمد ﷺ ـ كفروا بهما ، **فاستمروا على كفرهم وانحرافهم ، واستحقوا أن يدمغهم القرآن الكريم بأنهم ﴿ هم شر البرية ﴾ أما الذين آمنوا وصدقوا ، في مقابل** أولئك الذين كفروا فأولئك : **﴿ هم خير البريَّة * جزآؤهم عند ربِّهم جنَّات عدنٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رَّضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربَّه ﴾**(١) .

وجاءت أحاديث النبي ﷺ تبين هذا المعنى ـ وتوجب على كل من يسمع به أن يؤمن به ويتبعه ويترك ما كان من شريعة سابقة انتهى العمل بها بعد مجيء محمد خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام ، فقال ﷺ : « والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة ـ يهودي أو نصراني ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار »(٢) .

ودخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوماً على النبي ﷺ بكتاب فيه مواعظ من التوراة ، فقال : هذه كنت أصبتها مع رجل من أهل الكتاب . فقال : فاعرضها عليَّ ، فعرضتها ، فتغيّر وجهه تغيراً شديداً ، ثم قال : « لو نزل موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم ، أنا حظكم من النبيين وأنتم حظي من الأمم »(٣) .

---

(١) سورة البينة ، من الآية [٧ ـ ٨] .

(٢) أخرجه مسلم ١/١٣٤ في الإيمان ، والطبراني والبزار وأحمد ، مجمع الزوائد للهيثمي ٨/٢٦٢ .

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٣/٤٧١ والدارمي والبيهقي في الشعب ، مجمع الزوائد ١/١٧٣ ـ ١٧٤ ، البيان والتعريف لابن حمزة الحسيني ١/١٧٢ . واستقصى الشيخ ناصر الدين الألباني طرق =

ومؤمن أهل الكتاب ، الذي يتبع محمداً ﷺ له أجره مرتين ، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب ، آمن بنبيه وأدرك النبي ـ ﷺ ـ فآمن به واتبعه وصدّقه ، فله أجران ، وعبد مملوك أدّى حق الله تعالى وحق سيده ، فله أجران . ورجل كانت له أمة فغذاها فأحسن غذاءها ثم أدبها فأحسن أدبها ، ثم أعتقها وتزوجها ، فله أجران »[1] .

وعندما ينزل عيسى عليه السلام في آخر الزمان بين يدي الساعة ، ينزل حاكماً بشريعة محمد ﷺ ، فما عذر أهل الكتاب في عدم إيمانهم به واتباعهم له ﷺ ؟ فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « والذي نفسي بيده ليوشكنّ أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية[2]، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد »[3] .

مواقف إيجابية حكاها القرآن الكريم :

ولكن فريقاً من أهل الكتاب ، من الذين فتح الله قلوبهم للحق والإيمان ، وأبصارهم للهدىٰ والنور ، فأدركوا حقيقة الدعوة التي

= الحديث وقال : هو على أقل تقدير حديث حسن . والله أعلم ، انظر : إرواء الغليل : ٦/٣٤ ـ ٣٧ .

(١) أخرجه البخاري ١/١٩٠ في العلم ، ومسلم ١/١٣٤ ـ ١٣٥ في الإيمان والترمذي ٢/٣٩٢ في النكاح والنسائي ٦/١١٥ في النكاح .

(٢) أي لا يقبلها ، ولا يقبل من الكفار إلا الإسلام ، ومن بذل الجزية منهم لم يكفّ عنه ، بل لا يقبل إلا الإسلام أو القتل .

(٣) البخاري ٤/٤١٤ في البيوع ، ومسلم ١/١٣٥ ـ ١٣٦ في الإيمان ، والترمذي ٣/٣٤٤ في الفتن ، وابن ماجه ٢/١٣٦٣ في الفتن أيضاً ، وأحمد في المسند ٢/٢٤٠ وفي مواضع أخرىٰ ، والبغوي في التفسير ١/٣٠٠ .

انتظروها والنبي الذي كانوا يستفتحون به ، هذا الفريق قد آمن فعلاً بمحمد ﷺ واتبعه ، ولِمَ لا يؤمنون ؟ وقد قامت الأدلة كلها على صدق هذا النبي ، بعد أن بشرت به كتبهم ورأوا أعلام نبوته ـ ﷺ ـ وقد حكى الله تعالى ذلك وسجله فقال : ﴿ **إنَّ الَّذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرُّون للأذقان سجَّدا * ويقولون سبحان ربِّنآ إن كان وعد ربِّنا لمفعولاً * ويخرُّون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً** ﴾(١)، وقال تعالى : ﴿ **الَّذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلىٰ عليهم قالوا آمنَّا به إنَّه الحقُّ من رَّبِّنآ إنَّا كنَّا من قبله مسلمين * أولـٰئك يؤتون أجرهم مَّرَّتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السَّيِّئة وممَّا رزقناهم ينفقون * وإذا سمعوا اللَّغو أعرضوا عنه وقالوا لنآ أعمٰالنا ولكم أعمٰالكم سلام عليكم لانبتغي الجاهلين** ﴾(٢). ﴿ **وإنَّ من أهل الكتاب لمن يؤمن باللَّه ومآأنزل إليكم ومآأنزل إليهم خاشعين للَّه لا يشترون بآيات اللَّه ثمناً قليلاً أولـٰئك لهم أجرهم عند ربِّهم إنَّ اللَّه سريع الحساب** ﴾(٣)... الخ آيات كثيرة في هذا المعنى ، وسيأتي بعضها أيضاً في مناسبات أخرى .

وحفظها الواقع التاريخي :

ويحفظ لنا الواقع التاريخي تصديق ذلك ، بإسلام أكثر أهل العقول والأحلام والعلوم ممن لا يحصيهم إلا الله ، من أولئك الذين عرفوا الحق

---

(١) سورة الإسراء ، الآيات [١٠٧ ـ ١٠٨ ـ ١٠٩] . وانظر : تفسير البغوي ١٥٣/٤ ـ ١٥٤ ، ابن كثير ٦٩/٣ .

(٢) سورة القصص ، الآيات [٥٢ ـ ٥٥] . وانظر : البغوي مع الخازن ١٤٧/٥ ، ابن كثير ٣٩٤/٣ ـ ٣٩٥ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية [١٩٩] . وانظر : البغوي مع الخازن ٣٩٤/١ ، ابن كثير ٤٤٤/١ ـ ٤٤٥ .

من أهل الكتاب ، « فرقعة الإسلام إنما انتشرت في الشرق والغرب بإسلام أكثر الطوائف ، فدخلوا في دين الله أفواجاً ، حتى صار الكفار معهم تحت المذلة والصغار ، والذين أسلموا من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين أكثر من الذين لم يسلموا وإنما بقي منهم أقل القليل ، وقد دخل في دين الله من ملوك الطوائف ورؤسائهم في حياة رسول الله ـ ﷺ ـ خلق كثير(١).

ونحن نجتزىء هنا بأمثلة من أولئك الرؤساء والمقدمين في دين النصرانية واليهودية ، نشير إليها إشارات سريعة لتكون عنواناً ودليلاً على ما سواها :

أ ـ **فهذا النجاشي** ملك النصارى على إقليم الحبشة ، في زمن النبي ﷺ ، لما تبين له أنه رسول الله آمن به ، ودخل في دينه ، وآوى أصحابه ومنعهم من أعدائهم ، ولما مات أعلم رسول الله ﷺ أصحابه بالساعة التي توفي فيها ، ثم خرج بهم إلى المصلى وصلّى عليه ، وقصته مشهورة ومعروفة(٢).

ب ـ **وعدي بن حاتم** ، كان من رؤساء النصارى الذين دخلوا في الإسلام لما تبين أنه الحق ، وقد كان عدي رئيساً مطاعاً في قومه يأخذ المرباع من غنائمهم ، وقد وفد على النبي ـ ﷺ ـ ودخل في الإسلام(٣).

---

(١) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى لابن القيم : ٤٩٨ ضمن مجموعة الجامع الفريد .

(٢) انظر : صحيح مسلم ٦٥٦/٢ ـ ٦٥٧ والبخاري ١١٦/٢ و١٩١/٧ ، أبو داود ٣٣٥/٣ والترمذي : ٢٤٣/٢ كلهم في الجنائز . وامتاع الأسماع للمقريزي ٢١ ، سيرة ابن هشام مع الروض ٢١٥/١ ـ ٢١٦ ، تاريخ الطبري ٦٥٢/٢ ـ ٦٥٤ .

(٣) مسند أحمد ٣٧٨/٤ ، سنن الترمذي : ٢٧١/٤ ـ ٢٧٢ باب التفسير ، ابن حبان ، موارد الظمآن ص ٥٦٦ ، سيرة ابن هشام مع الروض الأنف ٣٤٣/٢ ، طبقات ابن سعد ٣٢٢/١ ـ مجمع الزوائد للهيثمي : ٤٠٣/٩ .

جـ ـ **وسلمان الفارسي** : رضي الله عنه ، كان قبل إسلامه من أعلم النصارى بدينهم ، لأنه فرَّ من دين المجوسية ولحق بنصارى الشام ، وخالط كبار رجال النصرانية عن كثب ، وعرف الصالح منهم ورجل السوء ، حتى انتهى إلى آخر واحد في عمورية من رجال الدين النصراني ، ولما حضر أمر الله أوصى سلمان فقال : يابني ما أعلمه أصبح على مثل ما كنا عليه أحد من الناس آمرك أن تأتيه ، ولكنه قد أظلّ زمان نبي مبعوث بدين إبراهيم ، يخرج بأرض العرب ، مهاجره إلى أرض بين حرّتين(١) بينهما نخل به علامات لا تخفى ... فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد ، فافعل ... وقد كان ذلك ، وأدرك سلمان ـ رضي الله عنه ـ نبوة محمد عليه السلام وأسلم(٢).

د ـ **وكذلك : ابنا الجُلنْدَى** : جيفر وعبد ، مِلكا عُمان وما حولها من ملوك النصارى ـ يومئذ ـ لما دعاهما النبي عليه الصلاة والسلام ـ إلى الإسلام ، أسلما ، وصدّقا النبي ﷺ(٣).

هـ ـ **وكان هرقل ، ملك الشام** ، أحد أكابر علمائهم بالنصرانية ، قد عرف أن محمداً ـ ﷺ ـ رسول الله حقاً ، وعزم على الإسلام ، فأبى عليه عبّاد الصليب ، فخافهم على نفسه وضنَّ بملكه مع علمه بأنه سينقل عنه إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وأمته ، وقصته معروفة مشهورة(٤).

---

(١) الحرة : أرض ذات حجارة سود نخرة كأنها أُحرقت بالنار ـ وحول المدينة حرار كثيرة منها حرة وبرة وواقم . انظر معجم البلدان ٢/٢٤٥ .

(٢) مسند أحمد : ٥/٤٣٨ و ٤٤١ ، سيرة ابن هشام : ١/١٤٢ ـ ١٤٤ .

(٣) طبقات ابن سعد ١/٢٦٢ ـ ٢٦٣ .

(٤) البخاري ٨/١٢٦ في الجهاد ، ١/٣١ ـ ٣٣ في بدء الوحي ، ومسلم ٣/١٣٩٣ ـ ١٣٩٧ في الجهاد ، ومسند أحمد ١/٢٦٢ ، طبقات ابن سعد ١/٢٥٩ ، تاريخ الطبري ٢/٦٥٠ ـ ٦٥٢ ، زاد المعاد لابن القيم بتحقيق الأرناؤوط ٣/٦٨٨ .

و ـ **وكذلك كان ملك دين النصرانية بمصر ـ المقوقس** ـ عرف أن محمداً ـ ﷺ ـ نبي صادق ولكن منعه من اتباعه ، أيضاً ، مُلْكُه وأن عبّاد الصليب لا يتركون عبادة الصليب ، وهو الذي قال فيه ﷺ : « ضنَّ الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه »(١).

ز ـ **وقصة إسلام عبد الله بن سلام** ـ رضي الله عنه ـ معروفة مشهورة ، وقد كان حبراً من أحبار يهود ، وكان سيدهم وابن سيدهم ، وعالمهم وابن عالمهم باعترافهم له بذلك وشهادتهم له .(٢)

ح ـ **وتذكر كتب السيرة مقالة حيي بن أخطب** ، وقد سمع النبي ﷺ مقدمه من مكة إلى المدينة ، وفيها أنه هو ـ ﷺ ـ النبي المنتظر وأنه يعرفه ويثبته ، ولكن الحسد والحقد أمليا عليه موقف العداوة أبداً(٣).

ولما أسلم عبد الله بن سلام وثعلبة بن شعبة وأسد بن سعية وأسيد ابن عبيد ومَنْ أسلم من اليهود ، فآمنوا وصدّقوا ، ورغبوا في الإسلام ، قال مَنْ كفر من اليهود : ما آمن بمحمد ولا اتبعه إلا شرارنا ، ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره فأنزل الله عز وجل في ذلك(٤): ﴿ **ليسوا سوآءً مِّن أهل الكتاب أمَّة قآئمة يتلون آيات اللَّه ءانآء الليل وهم يسجدون * يؤمنون باللَّه واليوم الآخر ويأمرون**

---

(١) طبقات ابن سعد ٢٦٠/١ ، تاريخ الطبري ٦٤٥/٢ ـ ٢٤٦ ، نصب الراية للزيلعي ٤٢١/٤ ـ ٤٢٢ ، والوثائق السياسية للدكتور محمد حميد الله : ١٣٥ ـ ١٣٩ .
(٢) مسند الإمام أحمد ١٠٨/٣ ـ ٢١١ سيرة ابن هشام ٢٥/٢ ـ ٢٦ ، طبقات ابن سعد ٢٣٦/١ ، مجمع الزوائد ٣٢٦/٩ .
(٣) سيرة ابن هشام مع الروض الأنف ٢٦/٢ .
(٤) تفسير الطبري ١٢٠/٧ ـ ١٢١ تحقيق محمود شاكر ، روح المعاني للآلوسي ٣٣/٤ .

بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولٰئك من الصَّالحين ﴾[١] .

وفي العصر الحديث :

وفي العصور الحديثة ، نجد أمثلة كثيرة على ذلك ، من أولئك الذين يدخلون في دين الإسلام ولا يستكبرون عن عبادة الله ، وهم من المقدّمين في قومهم النصارى ؛ فيهم علماء دينهم ، ورجال الدولة والسياسة ، وفيهم العلماء ورجال الفكر الثاقب ، وفيهم الكتّاب والأدباء والمصلحون والوعاظ ورجال الاجتماع وغيرهم ..[٢]

لا يتحقق إيمان اليهود والنصارى إلا بإيمانهم بمحمد عليه السلام :

ولا يتحقق أصلاً إيمان اليهود والنصارى إلا بإيمانهم بمحمد ﷺ واتباعه في دينه الذي أنزله الله ، وإلا فماهم بمؤمنين ولا مسلمين ، فاليهود الذين آمنوا بموسى عليه السلام وصدقوا بكتابه ، أو آمنوا بالرسل قبله كانوا مسلمين لله حتى أنزل الله شريعة عيسى ، فوجب عليهم ـ ليحققوا إيمانهم ـ أن يؤمنوا به ويتبعوه وينفكوّا عن الشريعة السابقة ، وكلاهما عند بعثة محمد ـ ﷺ ـ وجب عليهم ـ ليكونوا مسلمين ـ أن يؤمنوا بنبوة محمد ﷺ ورسالته ، فإن لم يفعلوا فما هم بمؤمنين ولا مسلمين ، وذلك أنهم أنكروا نبوة رسول من عند الله تعالى ورفضوا الإيمان برسالة أنزلها الله تعالى .

---

(١) سورة آل عمران ، الآيتان [١١٣ ـ ١١٤] .

(٢) انظر أمثلة عن هؤلاء وتراجمهم في كتاب : لماذا أسلمنا وهو مجموعة مقالات لنخبة من رجال الفكر عن سبب إسلامهم ، ترجمة مصطفى جبر ، وكتاب : رجال ونساء أسلموا تأليف كامل عرفات العش .

الإيمان بمحمد ﷺ شرط للإيمان بنبوة الأنبياء جميعاً :

فالإيمان بنبوة محمد ـ ﷺ ـ شرط للإيمان بنبوة الأنبياء جميعاً عليهم السلام ، إذ لا يمكن الإيمان بنبي من الأنبياء أصلاً مع جحود نبوة محمد رسول الله ﷺ ، ومن جحد نبوته فهو لنبوة غيره من الأنبياء أشد جحداً . وهذا يتبين بوجوه :

الوجه الأول : أن الأنبياء المتقدمين بشروا بنبوته ، وأمروا أممهم بالإيمان به ، فمن جحد نبوته فقد كذّب الأنبياء قبله فيما أخبروا به ، وخالفهم فيما أمروا وأوصوا به من الإيمان به . والتصديق به لازم من لوازم التصديق بهم ، وإذا انتفى اللازم انتفى ملزومه قطعاً ، وبيان الملازمة هي الوجوه الكثيرة التي تلي هذا مباشرة ، وهي تفيد بمجموعها القطع على أنه ﷺ قد ذكر في الكتب الإلٰهية على ألسن الأنبياء .

الوجه الثاني : أن دعوة محمد ﷺ هي دعوة جميع المرسلين قبله ، من أولهم إلى آخرهم ، فالمكذب بدعوته مكذب بدعوة إخوانه كلهم ، وهذا التكذيب كفر ، فوجب الإيمان بدعوته عليه السلام واتباعه .

الوجه الثالث : أن الآيات والبراهين التي دلت على صحة نبوته وصدقه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أضعاف أضعاف آيات من قبله من الرسل(١)، فليس لنبي من الأنبياء آية توجب الإيمان به إلا ولمحمد ﷺ مثلها أو ما هو في الدلالة مثلها ، وإن لم يكن من جنسها ، فآيات نبوته عليه الصلاة والسلام أعظم وأكبر ، والعلم بنقلها قطعي ، لقرب العهد وكثرة النَّقَلة واختلاف أمصارهم وأعصارهم واستحالة تواطئهم على

---

(١) اقرأ في دلائل نبوته عليه الصلاة والسلام : الجزء الرابع من الجواب الصحيح لابن تيمية ، تثبيت دلائل النبوة للقاضي عبد الجبار بن أحمد ، دلائل النبوة للبيهقي ، وأعلام النبوة للماوردي . إظهار الحق للشيخ رحمة الله .

الكذب ، فالعلم بآيات نبوته كالعلم بنفس وجوده وظهوره ، فإذا جاز القدح في ذلك كله ، فالقدح في وجود عيسى وموسى وآيات نبوتهما أشد جوازاً ، وإن امتنع القدح فيهما وفي آيات نبوتهما فامتناعه في محمد ﷺ وآيات نبوته أشدّ[1].

ولو لم يظهر محمد لبطلت نبوة الأنبياء :

ولو لم يظهر محمد ﷺ لبطلت نبوة سائر الأنبياء ، فظهور نبوته تصديق لنبواتهم وشهادة لها بالصدق ، فإرساله من آيات الأنبياء قبله ، وقد أشار الله سبحانه إلى هذا المعنى بعينه في قوله : ﴿ **جآء بالحقِّ وصدَّق المرسلين** ﴾[2]فإن المرسلين بشروا به وأخبروا بمجيئه ، فمجيؤه هو نفس صدق خبرهم ، فكان مجيؤه تصديقاً لهم ، إذ هو تأويل ما أخبروا به ، ولا تنافي بين هذا وبين القول الآخر : إن تصديقه المرسلين شهادته بصدقهم وإيمانه بهم ، فإنه صدقهم بقوله ومجيئه ، فشهد بصدقهم بنفس مجيئه ، وشهد بصدقهم بقوله ، ومثل هذا قول المسيح فيما حكاه الله تعالى في القرآن الكريم عنه : ﴿ **مُصَدِّقاً لِّما بين يديَّ من التَّوراة ومبشِّرا برسولٍ يأتي من بعدي اسمه أحمد** ﴾[3]فإن التوراة لما بشرت به وبنبوته كان نفس ظهوره تصديقاً لها ، ثم بشر برسول يأتي من بعده ، فكان ظهور الرسول المبشر به تصديقاً له ، كما كان ظهوره تصديقاً للتوراة ، فعادة الله في رسله : أنّ السابق يبشر باللاحق ، واللاحق يصدق السابق ، فلو لم يظهر محمد بن عبد الله ـ ﷺ ـ ولم يبعث لبطلت نبوة الأنبياء قبله[4].

(١) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى لابن القيم ٦٥٩ ـ ٦٦٠ ، وانظر : الجواب الصحيح ١/٣٥٠ .

(٢) سورة الصافات ، الآية [٣٧] .

(٣) سورة الصف ، من الآية [٦] .

(٤) هداية الحيارى لابن القيم ٦٣٤ ـ ٦٣٥ .

ومن حكمة الله سبحانه أنه ما بعث نبياً إلا وقد أخذ عليه وعلى أتباعه العهد أن يؤمنوا بالنبي الذي يأتي بعده ويصدقوه وينصروه ﴿ **وإذ أخذ اللّه ميثاق النّبيّن لمآ ءاتيتكم مّن كتابٍ وحكمةٍ ثمّ جآءكم رسولٌ مّصدّقٌ لّما معكم لتؤمننّ به ولتنصرنّه قال ءأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشّاهدين * فمن تولّى بعد ذلك فأولٰئك هم الفاسقون** ﴾[1] فقد أخبر الله تعالى أنه أخذ الميثاق من أنبيائه بتصديق بعضهم بعضاً ، وأخذ الأنبياء على أممهم وأتباعهم الميثاق بنحو الذي أخذ عليها ربُّها من تصديق أنبياء الله ورسله بما جاءتها به ، لأن الأنبياء عليهم السلام أرسلوا بذلك إلى أممهم ، ولم يدّع أحد ممن صدّق المرسلين أن نبياً أُرسل إلى أمة بتكذيب أحد من أنبياء الله عز وجل وحججه في عباده ، بل كلها ـ وإن كذب بعض الأمم بعضَ أنبياء الله بجحودها نبوته ـ مقرّة بأنّ مَنْ ثبتت صحة نبوته ـ فعليها الدينونة بتصديقه ، فذلك ميثاق مقرٌّ به جميعهم[2] .

فمهما آتى الله أحدَهم من كتاب وحكمة وبلغ أي مبلغ ، ثم جاء رسول من بعده لابد أن يؤمن به وينصره ، ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من اتباع من بُعث بعده ونصرتِه ، وها قد بعث الله تعالى محمداً ﷺ ، وجاء مصدقاً لما بين يديه من الكتاب[3]، وقد أخذ الله

---

(١) سورة آل عمران ، الآيتان [٨١ ـ ٨٢] .

(٢) تفسير الطبري ٥٥٧/٦ بتحقيق محمود شاكر .

(٣) والمراد بالتصديق لما معهم ـ مع مخالفة شرعه عليه الصلاة والسلام لشرعهم ـ حصول الموافقة في التوحيد والنبوات وأصول الشرائع ، فأما تفاصيلها ، وإن وقع الخلاف فيها ، فذلك في الحقيقة ليس بخلاف ، لأن جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام متفقون على أن الحق في زمان موسى عليه الصلاة والسلام ليس إلا شرعه ... وأن الحق في زمان محمد عليه الصلاة والسلام ليس إلا شرعه ،=

الميثاق والعهد على أهل الكتاب أن يؤمنوا به ، فوجب الوفاء بذلك الميثاق والعهد ، واكتفى ـ سبحانه ـ بذكر الأنبياء في الآية لأن العهد على المتبوعين عهد على الأتباع ، ولأنه إذا وجب على الأنبياء الإيمان به ونصره فوجوب ذلك على من اتبعهم أولى وأحرى .

وهذا هو معنى ما روي عن علي بن أبي طالب وابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ حيث قالا : ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق : لئن بعث الله محمداً وهو حي ليؤمِنَنَّ به ولَيَنْصُرَنَّه ، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته : لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمُنُنَّ به ولينصُرُنّه[1] .

بشارات الكتب السابقة بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام :

وليس لأهل الكتاب أي عذر في عدم إيمانهم بمحمد ﷺ ، وقد بشرت كتبهم بنبوته وأشارت إلى ذلك[2]، نجد هذا حكاية عنهم في القرآن الكريم ، ونجد له شاهداً من الواقع التاريخي منذ عهد الرسول ﷺ ، ويتفق هذا كله مع النصوص في كتبهم التي يعتمدون هم عليها ، سواء في العهد القديم أو الجديد . وإليك شيئا من البيان لذلك كله :

حكى الله تعالى ذلك في القرآن الكريم :

أما القرآن الكريم ، فقد حكى الله تعالى : أن التوراة والإنجيل قد احتوى كل منهما على إشارات إلى بعثة محمد ﷺ ونبوته وصفته وصفة

= فهذا وإن كان يوهم الخلاف إلا أنه في الحقيقة وفاق . وكذلك كان ظهوره عليه الصلاة والسلام على ما هو مطابق لوصفه في كتبهم ـ كما سيأتي ـ كان ذلك تصديقاً لما معهم . انظر : تفسير الفخر الرازي ٨ /١٣١ ، هداية الحيارى ١٣٥ .

(١) انظر : تفسير الطبري ٦/٥٥٥ ـ ٥٥٦ ، ابن كثير ١/٣٧٦ ، روح المعاني ٣/٢٠٩ ، البغوي ١/٣١٣ ، الرد على المنطقيين : ٤٥١ .

(٢) ساق الإمام ابن القيم اثنى عشر وجهاً تدل على أنه ﷺ مذكور في الكتب المتقدمة ، ومنها البشارات بنبوته في كتبهم . انظر هداية الحيارى : ٥٢٢ ـ ٥٢٦ .

أصحابه . فقال الله تعالى : ﴿ **الَّذين يتَّبعون الرَّسول النَّبيَّ الأمِّيَّ الَّذي يجدونه مكتوباً عندهم في التَّوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحلُّ لهم الطَّيِّبات ويحرِّم عليهم الخبآئث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالَّذين ءامنوا به وعزَّروه ونصروه واتبعوا النُّور الَّذي أُنزل معه أولـٰئك هم المفلحون** ﴾(١) . ﴿ **وكانوا من قبل يستفتحون على الَّذين كفروا فلمَّا جآءهم مَّاعرفوا كفروا به فلعنة اللَّه على الكافرين** ﴾(٢) ، ﴿ **أو لم يكن لَّهم ءاية أن يعلمه علماء بنيّ إسرآئيل** ﴾(٣) .

وهم يعلمون صدقه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وصدق الكتاب الذي أنزل عليه فترى علماءهم الصادقين يقرون بذلك ، وإنهم ليعلمون أنه الحق من ربهم فيصدقونه ، وإذا تلا عليهم الآيات تراهم يخرون للأذقان سجداً : ﴿ **وإذا سمعوا مآأنزل إلى الرَّسول ترىٰ أعينهم تفيض من الدَّمع ممَّا عرفوا من الحقِّ يقولون ربَّنا ءامنَّا فاكتبنا مع الشَّاهدين** ﴾(٤) . ﴿ **إنَّ الَّذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلىٰ عليهم يخرُّون للأذقان سجَّداً ۞ ويقولون سبحان ربِّنا إن كان وعد ربِّنا لمفعولا ويخرُّون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً** ﴾(٥) .

وهذه صفته عليه الصلاة والسلام وصفة أصحابه عندهم ، في كتبهم، كما حكاها الله تعالى في القرآن الكريم : ﴿ **مُحمَّد رَّسول الله**

---

(١) سورة الأعراف ، الآية [١٥٧] .
(٢) سورة البقرة ، من الآية [٨٩] .
(٣) سورة الشعراء ، الآية [١٩٧] .
(٤) سورة المائدة ، الآية [٨٣] .
(٥) سورة الإسراء ، الآيات [١٠٧ ـ ١٠٩] .

والَّذين معه أشدَّآء على الكفَّار رحمآء بينهم تراهم ركَّعاً سجَّداً يبتغون فضلاً من اللَّه ورضوانا سيماهم في وجوههم مِّن أثر السُّجود ذٰلك مثلهم في التَّوراة ومثلهم في الإنجيل كزرعٍ أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوىٰ على سوقه يعجب الزُّرَّاع ليغيظ بهم الكفَّار وعد اللَّه الَّذين ءامنوا وعملوا الصَّالحات منهم مَّغفرةً وأجراً عظيما ﴾[1].

وحكى الله تعالى بشارة عيسى عليه السلام بمحمد - ﷺ - فقال : ﴿ **وإذ قال عيسى ابن مريم يابني إسرآئيل إنِّي رسول اللَّه إليكم مصدِّقاً لِّما بين يديَّ من التَّوراة ومبشِّراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلمَّا جاءهم بالبيِّنات قالوا هٰذا سحرٌ مّبين ﴾**[2].

وتجمعت هذه الشواهد كلها لتعطي أهل الكتاب علماً يقينياً بمعرفة نبوته ﷺ : ﴿ **الَّذين ءاتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبنآءهم الَّذين خسروٓا أنفسهم فهم لا يؤمنون ﴾**[3] .

ولكن فريقاً منهم يكتمون هذا الحق والعلم اليقيني مع علمهم بأنه حق ، وفي هذا ما فيه من البشاعة والجحود ، فقال الله تعالى عنهم : ﴿ **الَّذين ءاتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبنآءهم وإنَّ فريقاً مِّنهم ليكتمون الحقَّ وهم يعلمون ﴾**[4].

وبعد شهادة الله تعالى ليس هناك شهادة ، فهو سبحانه أصدق القائلين وخير الشاهدين .

---

(١) سورة الفتح ، الآية [٢٩] .
(٢) سورة الصف ، الآية [٦] .
(٣) سورة الأنعام ، الآية [٢٠] .
(٤) سورة البقرة ، الآية [١٤٦] .

ولهذه البشارات شواهد سجلها التاريخ :

ولتقوم الحجة على أهل الكتاب أكثر نستدعي شهوداً منهم ـ وهم أولئك الذين سجّل التاريخ شهاداتهم واعترافاتهم بأنهم ينتظرون نبياً سوف يبعثه الله ، وقد بشرت به كتبهم ، فقد سبقت آنفاً الإشارة إلى عدد من رؤساء النصارى الذين أسلموا في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام لمّا بلغتهم دعوته ، لأنهم عرفوها أولاً وعرفوا نبيها من كتبهم التي بشرت به ، فما كانوا يرجمون الغيب ، بل يعترفون بحق وجدوه مجسّداً في كتبهم :

فهذا امبراطور الروم يكتب إلى النبي ﷺ في جوابه لكتاب النبي الذي يدعوه فيه إلى الإسلام : « وإني أشهد أنك رسول الله ، نجدك عندنا في الإنجيل ، بشّرنَا بك عيسى بن مريم » ، وفي كتاب آخر يقول : « قد كنت أعلم أنه خارج ، ولكن لم أظنه منكم ، ولو أعلم أني أخلص إليه لأحببت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه »(١).

وهذه الحجة يقيمها المسلمون على النجاشي من الإنجيل ، فلا يعترض على ذلك ولا يرده ، فقد قال له عمرو « .. وقد أخذنا الحجة عليك من فيك ، الإنجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد وقاضٍ لا يجور ، وفي ذلك موقع الحز وإصابة المفصل ، وإلا فأنت في هذا النبي كاليهود في عيسى بن مريم » فقال النجاشي : أشهد بالله إنه للنبي الأمي الذي ينتظره أهل الكتاب ، وإن بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل ، وإن العيان ليس بأشفى من الخبر »(٢).

---

(١) انظر الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة د . محمد حميد الله : ١١١ ـ ١١٤ .
(٢) انظر فيما سيأتي البشارة الثالثة في كتاب أشعياء من العهد القديم .

وهذا المقوقس عظيم القبط في مصر يقول في كتابه للرسول ﷺ : وقد علمت أن نبياً قد بقي وكنت أظن أنه يخرج بالشام[1]. فما الذي أعلمه بذلك ؟ هل كان يرجم الغيب ويتبع الظنون والأوهام ؟ .

وهذا (مري) حاجب الحارث بن أبي شمر الغساني يقول لشجاع ابن وهب ـ رضي الله عنه ـ : « إني قرأت في الإنجيل ، وأجد صفة هذا النبي بعينه ، فكنت أراه يخرج بالشام ، فأراه قد يخرج بأرض العرب . وهذه الشهادة صريحة في أنه وجد صفة النبي بعينه في الإنجيل .

وذاك رجل الدين النصراني في عمورية الذي لازمه سلمان بوصية من سلفه الذي هو على دينه ، يقول عندما حضرته الوفاة : « ولكنه قد أظل زمان نبي مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب ، مهاجره إلى أرض بين حرتين فيهما نخل ، به علامات لا تخفى ، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، بين كتفيه خاتم النبوة .

وخالدة بنت الحارث ، اليهودية ، عمة عبد الله بن سلام ـ تقول له وتسأله لما هاجر النبي عليه السلام إلى المدينة : يا بن أخي أهو النبي الذي كنا نبشر به أنه يبعث مع نفس الساعة ؟ قال : فقلت لها : نعم ، ثم أسلمت . فقوله : نبشر به ، دليل على أن هناك بشارة ، فمن أين جاءت إن لم تكن في كتبهم يعرفها علماؤهم ؟ .

وذاك أيضاً أبو ياسر بن أخطب ، يقول لقومه ، بعد أن سمع من النبي وحادثه : ياقوم أطيعوني ، فإن الله عز وجل قد جاءكم بالذي كنتم تنتظرون ، فاتبعوه ولا تخالفوه[2].

---

(١) الوثائق السياسية ، ١٣٦ .

(٢) انظر فيما سبق المراجع في فقرة الواقع التاريخي ، هداية الحيارى ٤٩٨ ـ ٥١٧ ، مجمع الزوائد ٨/٢٣٠ ـ ٢٤٣ ، إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والنبوات للشوكاني ٣٥ ـ ٤٠ .

فهذه شهادتهم القولية ، وتلك شُهادتهم الواقعية ، اتفقتا معاً على تأكيد ما نجد من إشارات إلى بعثته عليه الصلاة والسلام في كتبهم التي بين أيديهم اليوم ــ رغم كل ما أصابها من تحريف وتزوير ورغم الكتمان لكثير منها .

ملاحظات بين يدي البشارات :

ونحن نجتزىء من هذه البشارات ببعضها ــ ليكون ذلك عنواناً على غيرها ــ ونقدم بين يدي هذه البشارات بعض الملاحظات المتعلقة بهذه البشارات وطبيعتها وتفسيرها :

(١) مع إيماننا بأن ما بين أيدي أهل الكتاب من اليهود والنصارى من الكتب ليس هو الكتاب الذي أنزله الله تعالى وحياً على موسى وعيسى عليهما السلام ، ورغم ما وقع فيهما على أيدي الأتباع من كتمان وتحريف ــ فهم يلبسون الحق بالباطل ويخلطونه به بحيث لا يتميز الحق من الباطل ــ ويكتمون الحق ويخفونه ويحرفون الكلم عن مواضعه لفظاً ومعنى ، ويلوون ألسنتهم بالكتاب ليلبسوا على السامعين اللفظ المنزل بغيره[(١)] ــ رغم هذا كله ، فإن إشارات كثيرة لا تزال بين طيات هذه الكتب ، تحمل النبوءات والبشارات بنبوة محمد ﷺ وكأن الله تعالى أبقاها ليخزيهم ويظهر ما هم عليه من باطل ولتقوم عليهم الحجة من كتبهم التي يقدسونها ، ولما كثرت هذه البشارات وما استطاعوا كتمانها كلها

---

(١) قال الله تعالى حكاية عنهم : ﴿ **ياأهل الكتاب لمَ تلبسون الحقَّ بالباطل وتكتمون الحقَّ وأنتم تعلمون** ﴾ [آل عمران ، الآية ٧١] ، ﴿ **ياأهل الكتاب قد جآءكم رسولنا يبيِّن لكم كثيراً ممَّا كنتم تخفون من الكتاب** ﴾ [المائدة من الآية ١٥] ، ﴿ **يحرِّفون الكلم عن مَّواضعه** ﴾ [النساء من الآية ٤٦ ، المائدة من الآية ١٣] ، ﴿ **وإنَّ منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون** ﴾ [آل عمران الآية ٧٨] .

أخذوا يحرفون فيها ويؤولون تأويلات باردة ليصرفوها عن معناها الحقيقي الدالّ على نبوة محمد ـ ﷺ ـ وليجعلوا بعضها خاصاً بعيسى عليه السلام . !

(٢) هذه البشارات على نوعين :

منها ما يكون إشارات مجملة ـ غالباً ـ ولا تنطق باسمه ﷺ واسم بلده مثلاً ، بل تذكر صفته ونعته ونعت أمته ومخرجه ، وشيئاً من صفات دعوته ورسالته وثمراتها ، ويكون في هذا أبلغ دلالة على المطلوب من ذكره باسمه الصريح ، فإن الاشتراك قد يقع في الاسم فلا يحصل به التعريف والتمييز ، ولا يشاء أحد ، يسمى بهذا الاسم ، أن يدعي أنه هو إلا فعل ، إذ الحوالة إنما وقعت على مجرد الاسم ، وإن كان هذا الإخبار مجملاً غير واضح عند العوام من الناس فإنه يصير عند الخواص جلياً بواسطة القرائن التي تحف به وقد يبقى خفياً عليهم أيضاً لا يعرفون مصداقه إلا بعد ادعاء النبي اللاحق أن النبي المتقدم أخبر عنه صدق ادعائه بظهور علامات النبوة والمعجزات على يديه .

ومن هذه البشارات ما يكون تفصيلاً تاماً بالاسم الصريح للنبي وبلده ... الخ ، وهذا يتفق مع ما حكاه الله تعالى ، على لسان بعض أنبيائه ، في القرآن الكريم من البشارة بمحمد ﷺ ، وسيأتي أمثلة على كلا النوعين ـ إن شاء الله تعالى ـ .

(٣) قد يدعي بعض أهل الكتاب أنهم ما كانوا ينتظرون نبياً آخر غير عيسى وإيلياء ، ولذلك ـ بزعمهم ـ لا تنطبق البشارات على محمد ، عليه الصلاة والسلام ، إذ عيسى عندهم خاتم الأنبياء ، وهذا زعم باطل وادعاء لا أصل له ، بل كانوا ينتظرون نبياً جديداً غيرهما ـ يدل على ذلك ما جاء في إنجيل يوحنا : « وهذه هي شهادة يوحنا حين أرسل

اليهودُ من أورشليم كهنةً ولاويين ليسألوه : من أنت ؟ فاعترف ولم ينكر ، واعترف : إني لست أنا المسيح ، فسألوه : إذن ماذا ، أإيليا أنت ؟ فقال : لست إياه . فسألوه : أنت النبي ؟ فأجاب : كلا . فقالوا له : من أنت ؟ لنعطي جواباً للذين أرسلونا ، ماذا تقول عن نفسك ؟ قال : أنا صوت صارخ في البرية ، قوِّموا طريق الرب كما قال أشعياء النبي » .[1]

فعلماء اليهود المعاصرين لعيسى عليه السلام سألوا يحيى عليه السلام : أولاً هل أنت المسيح ؟ ولما أنكر سألوه : أنت إيلياء ؟ ولما أنكر سألوه : أنت النبي ؟ أي النبي المعهود الذي أخبر به موسى ، فعلم أن هذا النبي كان منتظراً قبل المسيح وإيلياء ، وكان مشهوراً بحيث لم يكن محتاجاً إلى ذكر الاسم ، بل الإشارة إليه كافية .

وإذا كانوا ينتظرون نبياً آخر غير عيسى وإيلياء ، فيعلم من هذا قطعاً أن عيسى عليه السلام ليس خاتم الأنبياء ، ثم إنهم يعترفون بنبوة الحواريين وبولس ! بل بنبوة غيرهم أيضاً ، فكيف يكون عيسى خاتم الأنبياء ـ بزعمهم ـ[2] .

(٤) الأخبار والبشارات التي نقلها المسيحيون في حق عيسى عليه السلام ، لا تصدق عليه ، بناء على تفاسير اليهود وتأويلاتهم لها ، ولذلك فهم ينكرونه أشد الإنكار . وعلماء المسيحية لا يلتفتون إلى تفسيرات اليهود في هذا الشأن وتأويلاتهم ، ويفسرونها بحيث تصدق على عيسى عليه السلام . ولئن كانت هذه التأويلات بنظر المسيحيين غير صحيحة

---

(١) إنجيل يوحنا ، الفصل الأول ، رقم ١٩ ـ ٢٣ طبع الكاثوليكية بيروت ، ص ١٥٥ .
(٢) راجع : إظهار الحق للشيخ رحمة الله ٥٠٥ ـ ٥٠٧ .

وغير لائقة ، كذلك تأويلات المسيحيين في الإخبارات التي هي في حق محمد ﷺ مردودة غير مقبولة ، وسيظهر أن الإخبارات أو البشارات التي ستأتي في حق محمد ﷺ أظهر صدقاً من تلك التي نقلها الإنجيليون في حق عيسى عليه السلام[1].

ومن هنا قال الإمام ابن القيم رحمه الله : فالمسلمون يؤمنون بالمسيح الصادق الذي جاء من عند الله بالهدى ودين الحق ، الذي هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول . والنصارى إنما تؤمن بمسيح دعا إلى عبادة نفسه وأمه ، وأنه ثالث ثلاثة ، وأنه الله وابن الله ، وهذا هو أخو المسيح الكذاب ، لو كان له وجود . فإن المسيح الكذاب يزعم أنه الله . والنصارى ـ في الحقيقة ـ أتباع هذا المسيح ، كما أن اليهود ربما ينتظرون خروجه ، وهم يزعمون أنهم ينتظرون النبي الذي بُشِّروا به[2]، فالنصارى آمنوا بمسيح لا وجود له ، واليهود ينتظرون المسيح الدجال !

(٥) من عادة أهل الكتاب ، سلفاً وخلفاً ، أنهم يترجمون ـ غالباً ـ الأسماء في تراجمهم ويوردون بدلها معانيها ، وتارة يزيدون شيئاً بطريق التفسير في الكلام ، دون إشارة إلى هذه الزيادة . وهذا يجعل الأسماء المترجمة محرفة وغامضة ، وفي كتبهم شواهد كثيرة على ذلك ، فلا عجب ، إذن ، أن يحرفوا ويبدلوا اسم النبي محمد ، ﷺ ، بلفظ آخر ، بحيث يخل ذلك بالاستدلال ، جرياً على عادتهم السالفة وعناداً وجحوداً .

ولذلك لن تكن النسخ المتداولة لكتبهم متفقة ، إذ قد يوجد في

---

(١) إظهار الحق للشيخ رحمة الله ٥٠٧ ـ ٥٠٨ .
(٢) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى لابن القيم ٥٤٠ .

نسخة مالا يوجد في غيرها ، ومن هنا نجد نقولات من تراجم كتبهم التي كانت متداولة في العصور السالفة ، نقلها علماء أعلام من المسلمين ليحاجّوا أهل الكتاب ، قد لا نجدها موافقة في بعض الألفاظ أو في كثير منها للتراجم المشهورة الآن ، بسبب ذلك التغيير في الترجمة والتحريف فيها .

فمثلاً ، ناقش الإمام ابن حزم النصارى ونقل نصوصاً كثيرة عنهم من الأناجيل ، في كتابه الفصل في الملل . ليبين تضاربها وتناقضها مع بعضها ، وكذلك فعل شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه العلامة ابن القيم ، والإمام الغزالي والقرطبي ، وأبو عَبِيْدَة الخزرجي ، وغيرهم من العلماء ، نقلوا نصوصاً من كتب النصارى قد لا نجدها موافقة في ألفاظها للإنجيل الموجود عندهم حالياً ، وبالطبع لو أن أحداً من أولئك العلماء المسلمين قد غيّر أو كذب فيما نقل لبيّن النصارى ذلك وردوه[١].

وبعد هذه الملاحظات التمهيدية ، نعرض بعضاً من تلك الإشارات لنبوة محمد ﷺ في الكتب السابقة ، مجتزئين بما هو واضح الدلالة منها على مطلوبنا ، ونختارها من كتب متعددة بما فيها الأناجيل الحالية .

البشارة الأولى :

جاء في التوراة : « أقبل الرب من سيناء ، وأشرق لهم من سعير [ساعير] وتجلّى من جبل فاران ، وأتى من ربى القدس ، وعن يمينه قبس شريعة لهم »[٢].

---

(١) انظر : إظهار الحق ٥١١ ـ ٥١٨ ، وراجع : الفصل في الملل لابن حزم ٦٩/٢ ـ ٧٥ ، الجواب الصحيح لابن تيمية ٦/٤ ـ ١٢ . هداية الحيارى ٥٥٩ ـ ٥٦٢ ، والرد الجميل للإمام الغزالي ، بين الإسلام والمسيحية للخزرجي ، والإعلام للقرطبي .

(٢) العهد العتيق ، سفرتثنية الاشتراع الفصل ٣٣ فقرة (٢) ص ٣٥٥ ، طبع الكاثوليكية . وفي =

وهذه البشارة واضحة الدلالة على نبوة محمد ﷺ ونبوة عيسى وموسى عليهم السلام . فمجيء الرب أو تجليه من طور سيناء ، هو إنزاله التوراة على موسى عليه السلام من طور سينا ، وإشراقه من ساعير ، وهي جبال بفلسطين ، هو إنزاله الإنجيل على عيسى عليه السلام ، وتجليه أو استعلانه من جبال فاران ، إنزاله القرآن الكريم على محمد ﷺ(١) .

وليس بين المسلمين وأهل الكتاب خلاف في أن فاران هي مكة ، وقد جاء في التوراة أيضاً أن إبراهيم عليه السلام أسكن هاجر وإسماعيل « فاران » . فأي نبي بعد عيسى عليه السلام نزل عليه كتاب واستعلن له الله من فاران غير محمد ﷺ . ؟

فالمراد باستعلان الرب من « فاران » هو إرسال محمد ﷺ ، وقد ذكر سبحانه إنزال الكتب الثلاثة بهذا الترتيب : التوراة ثم الإنجيل ثم القرآن ، وكان مجيء التوراة مثل طلوع الفجر أو ما هو أظهر من ذلك ، ونزول الإنجيل مثل إشراقة الشمس ، ازداد به النور والهدى .

وأما نزول القرآن ، فهو بمنزلة ظهور الشمس في السماء ، ولهذا قال : واستعلن من جبال فاران ــ في إحدى التراجم ــ فإن النبي ﷺ ظهر به نور الله وهداه في مشرق الأرض ومغربها ، أعظم مما ظهر

= الترجمة التي نقلها شيخ الإسلام . تجلى الرب من سيناء ، وأشرق لنا من ساعير ــ واستعلن من جبال فاران ومعه ألوف الأطهار وفي يمينه سنة من نار » .

(١) قال ياقوت في معجم البلدان ٣/٣٠٠ « سينا : اسم موضع بالشام ــ يضاف إليه الطور ــ فيقال : طور سيناء ، وهو الجبل الذي كلّم الله تعالى عليه موسى عليه السلام ونودي فيه ... وقد جاء في اسم هذا الموضع : سينين ، في سورة التين ، »

وقال : « ساعير : في التوراة اسم لجبال فلسطين ــ وهو قرية من الناصرة بين طبرية وعكا . نفسه : ٣/١٧١.

وفاران : كلمة عبرانية معربة ــ وهي اسم من أسماء مكة ــ ذكرها في التوراة ــ وقيل : اسم لجبال مكة : ٤/٢٢٥ . وهو ما قاله ابن قتيبة أيضاً . انظر : الجواب الصحيح ٣/٣٠٠ ــ ٣٠١ .

بالكتابين المتقدمين كما يظهر نور الشمس إذا استعلنت في مشارق الأرض ومغاربها ، ولهذا سماه الله سراجاً منيرا ، وسمى الشمس سراجاً وهاجا .

وهذه الأماكن الثلاث أقسم الله تعالى بها في القرآن ، في قوله تعالى : ﴿ **والتين والزيتون * وطور سنين * وهذا البلد الأمين** ﴾(١) . فأقسم الله تعالى بالتين والزيتون ، أي بالأرض المقدسة التي ينبت فيها ذلك ومنها بعث المسيح وأنزل عليه فيها الإنجيل . وأقسم بطور سيناء ، وهو الجبل الذي كلّم الله فيه موسى وناداه من واديه الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة ، وأقسم بالبلد الأمين ـ وهي مكة ، والبلد الذي أسكن إبراهيم فيه ابنه إسماعيل وأمه(٢) .

البشارة الثانية :

قال داود في الزبور ، في نبوءة أشعياء : « سبحوا لله تسبيحاً جديداً ، وليفرح بالخالق من اصطفى الله له أمته وأعطاه النصر ، وسدد الصالحين منهم بالكرامة ، يسبحونه على مضاجعهم ، ويكبرون الله بأصوات مرتفعة ، بأيديهم سيوف ذات شفرتين ، لينتقم بهم من الأمم الذين لا يعبدونه »(٣) .

---

(١) سورة التين ، الآيات [١ ـ ٢ ـ ٣] .

(٢) انظر بالتفصيل عن هذه البشارات ، وبشارات أخرى في التوراة : الجواب الصحيح ٣/٣٠٠ ـ ٣١٤ ، هداية الحيارى ٥٢٦ ـ ٥٣٠ ، ٥٤٢ ـ ٥٤٣ ، إظهار الحق ٥١٩ ـ ٥٣١ ، بين الإسلام والمسيحية للخزرجي ٢٦٠ ـ ٢٦٥ ، الإعلام للقرطبي ٢٦٣ ـ ٢٦٦ .

(٣) نقل هذه البشارات الإمام ابن تيمية ونقلها بألفاظ قريبة منها الخزرجي ص ٢٦٥ . وفي نبوءة أشعياء ، الفصل الثاني والأربعين ص ٣٩٤ ـ ٣٩٥ ، طبع الكاثوليكية . أنشدوا للرب نشيداً جديداً ، تسبيحة له من أقاصي الأرض ياهابطي البحر ويامْلأه ويا أيتها الجزائر وسكانها ، لتشد البرية ومدنها والحظائر التي يسكنها قيدار ، وليرنم سكان الصخرة ، وليهتفوا من رؤوس الجبال » . وهذا يؤكد ما سبقت الإشارة إليه من الاختلاف الكبير في التراجم وتغيير كثير من المعاني مما يفقد الثقة بالكتاب .

وهذه الصفات إنما تنطبق على محمد ﷺ وأمته ؛ فالتسبيحة الجديدة هي العبادة على النهج الجديد في الشريعة الإسلامية ، وتعميمها على سكان الأرض ، قاصيها ودانيها ، إشارة إلى عموم نبوته ﷺ والمسلمون هم الذين يكبّرون الله تعالى بأصوات مرتفعة في أذانهم للصلوات الخمس على الأماكن العالية ، في الأذان وفي العيدين وعقيب الصلوات في أيام منى ، وعلى القرابين والأضاحي ، وعند رمي الجمار ، وعلى الصفا والمروة ، وعند محاذاة الحجر الأسود . والمسلمون هم الذين يسبحون الله ويذكرونه قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، وهم الذين بأيديهم سيوف ذات شفرتين ينتقم الله بهم من الأمم بالجهاد ، وليس ذلك لليهود ولا النصارى ، فإن اليهود يجمعون الناس بالبوق والنصارى بالناقوس ، ولا يرفعون أصواتهم بالتكبير لله تعالى ، وقد كانوا مغلوبين بين الأمم ، ولم يكن الجهاد مطلوباً من النصارى ، على ما قال المسيح ، في كتبهم ، « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر »(١) . ومن هي هذه الأمة التي سيوفها ذات شفرتين ينتقم الله بها من الأمم الذين لا يعبدونه ؟ إنها الأمة المسلمة(٢) .

وفي ترجمة كتاب أشعياء إلى الأوردية ، التي ترجمها القسيس أوسكان الأرمني ، تصريح باسمه عليه الصلاة والسلام في الباب الثاني والأربعين ، وقد جاءت هكذا : « سبحوا الله تسبيحاً جديداً ، وأثر سلطنة على ظهره ، واسمه أحمد » . وهذه الترجمة موجودة عند الأرامن(٣) .

---

(١) إنجيل متى ٥/٣٩ و ٥/٤٠ ـ ٤٤ .

(٢) انظر بالتفصيل : الجواب الصحيح ٣/٣١٤ وما بعدها ، هداية الحيارى ٥٤٥ ـ ٥٤٨ ، إظهار الحق ٥٣٦ ـ ٥٣٩ ، الإعلام للقرطبي ٢٦٦ ـ ٢٦٧ ، بين الإسلام والمسيحية ٢٦٥ ـ ٢٦٦ .

(٣) انظر : إظهار الحق ٥٦١ نقلاً عن علي القرشي في كتابه : خلاصة سيف المسلمين ، النبوة =

البشارة الثالثة :

وقالوا في نبوءة أشعياء : « فإنه هكذا قال لي السيد : اذهب أقم الرقيب وليخبر بما يرى ، فرأى ركباً أزواج فرسان ، ركاب حمير وركاب جمال ، فأصغى إصغاء شديداً ثم صرخ كأسدٍ : أيها السيد إني قائم على المرصد دائماً في النهار وواقف على المحرس طول الليالي ، فإذا بركب من الرجال وأزواج فرسان قد أتوا ، ثم عادوا قال : سقطت بابل(١) وحُطمت إلى الأرض جميع منحوتات آلهتها »(٢).

فراكب الحمار هو المسيح عليه السلام ، وراكب الجمل هو محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وهو أشهر بركوب الجمل من المسيح بركوب الحمار . وبمحمد ﷺ وأمته سقطت بابل وعبادة الأصنام فيها ، لا بالمسيح ولا بغيره ، ولم يزل في إقليم بابل من يعبد الأوثان من عهد إبراهيم الخليل عليه السلام إلى زمان محمد ﷺ وأمته ، وبهما وبدعوته سقطت هذه الأصنام وانتهت(٣).

البشارة الرابعة :

في إنجيل يوحنا : « إن كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي ، وأنا أسأل الأب فيعطيكم فارقليط آخر ليثبت معكم إلى الأبد ، روح الحق الذي لا يستطيع أن يقبله العالم لأنه لم يره ولم يعرفه ، أما أنتم فتعرفونه . .... وأما المعزي الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويذكّركم كل ما قلته لكم ، قد سمعتم أني قلت لكم إني ذاهب

= والأنبياء للمهندس أحمد عبد الوهاب ص ١٥٨ .

(١) انظر : معجم البلدان لياقوت ١/٣٠٩ ـ ٣١١ .

(٢) نبوءة أشعياء فصل ٦/٢١ ـ ٩ . وهي بألفاظ أخرى في كتاب أبي عبيدة الخزرجي ٢٧٦ .

(٣) انظر : الجواب الصحيح ٣/٣٢٣ ، هداية الحيارى ٥٤٦ ، بين الإسلام والمسيحية ٢٧٧ .

ثم آتي إليكم ، فلو كنتم تحبوني لكنتم تفرحون بأني ماضٍ إلى الآب لأن الآب هو أعظم مني . والآن قد قلت لكم قبل أن يكون حتى متى كان تؤمنون »(١) .

وليس معنى الفارقليط هنا : الروح ، ولا الروح القدس أو المعزي ، وإنما تعني الحمد أو أفعل التفضيل من الحمد ، وهو « أحمد » ويكون ذلك مطابقاً مطابقة حرفية لبشارة عيسى عليه السلام التي حكاها الله تعالى في سورة الصف .

يقول الدكتور محمد توفيق صدقي في كتابه : « دين الله في كتب أنبيائه » :

هذا اللفظ (الفارقليط) يوناني ، ويكتب بالإنكليزية هكذا (Paraclete) أي (المعزي) ويتضمن أيضاً معنى المُحاجّ ، كما قال بوست في قاموسه . وهناك لفظ آخر يكتب هكذا (Pericltee) ومعناه : رفيع المقام ، سامٍ ـ جليل ، مجيد ، شهير . وهي كلها معانٍ تقرب من معنى محمد وأحمد ومحمود .

ولا يخفى أن المسيح كان يتكلم بالعبرية ، فلا ندري ماذا كان اللفظ الذي نطق به الكلام ، ولا ندري إن كانت ترجمة مؤلف هذا الإنجيل له بلفظ (Paraclete) صحيحة أو خطأ ؟ ولا ندري إن كان هذا اللفظ هو الذي ترجم به من قبل أم لا ؟ لأننا نعلم أن كثيراً من الألفاظ والعبارات وقع فيها التحريف من الكتّاب سهواً أو قصداً كما اعترفوا به في جميع كتب العهدين ، فإذا كان اللفظ الأصلي (بيرقليط) فلا يبعد أنه تحرف عمداً أو سهواً إلى (بارقليط) حتى يبعدوه عن معنى اسم

---

(١) إنجيل يوحنا ، الفصل ١٤/١٦ ـ ٢٩ طبع الكاثوليكية وفيه : فيعطيكم معزياً بدل فارقليط .

النبي ﷺ ، ومما يسهل عليهم ذلك تشابه أجرف هذه الكلمة في اللغة اليونانية .

وعلى كل حال أياً كان معنى هذه الكلمة وأصلها ، فمعنى كل منهما ينطبق على محمد ﷺ ، فهو معز للمؤمنين على عدم إيمان الكافرين ، وعلى عدم وجود الشر في هذا العالم بإيضاح أن هذه هي إرادة الله ... وهو ﷺ كان يحاجّ الكفار والمشركين وغيرهم . والعبارات في إنجيل يوحنا لا تنطبق إلا على محمد ﷺ(١) .

بشارات إنجيل برنابا :

وهذا الإنجيل الذي لا يعترف به النصارى ، مع أنه يفوق الأناجيل الأخرى ثبوتاً وقانونية ـ كما يقولون ـ يحتوي على بشارات كثيرة فيها التصريح باسم « محمد » ﷺ وباسمه الشريف « أحمد » ، وقد يستنكر الباحثون لذلك لكون البشارات عادة تكون بالكنايات والإشارات . ولكن لا داعي لهذا الاستغراب ، فإن البشارات قد تكون إشارات وقد تكون صريحة بالاسم ، والعريقون في الدين لا يرون مثل ذلك مستنكراً في خبر الوحي . وقد نقل الشيخ محمد بيرم عن رحالة إنجليزي أنه رأى في دار الكتب البابوية في الفاتيكان نسخة من الإنجيل مكتوبة بالقلم الحميري قبل بعثة النبي ﷺ ، وفيها يقول المسيح (ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد) وذلك موافق لنص القرآن بالحرف .

ولكن لم ينقل عن أحد من المسلمين أنه رأى شيئاً من هذه الأناجيل

---

(١) عن تفسير المنار لرشيد رضا ٩/٢٦٤ ـ ٢٦٥ ، وانظر بتفصيل واسع : إظهار الحق ٥٤٨ وما بعدها ، الجواب الصحيح ٤/٦ ومابعدها هداية الحيارى ٥٣٠ ، قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار ٣٩٧ ـ ٣٩٨ وفيه شهادة المستشرق نللينو عن معنى الفارقليط ، وتفسير المنار ٦/٨٥ ، ٩/٢٢١ وما بعدها ، الإعلام للقرطبي ٢٦٨ ـ ٢٦٩ .

التي فيها هذه البشارات الصريحة ، فيظهر أن في مكتبة الفاتيكان من بقايا تلك الأناجيل والكتب التي كانت ممنوعة في القرون الأولى ، مالو ظهر لأزال كل شبهة عن إنجيل برنابا وغيره »[١] .

فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به بغياً وحسداً :

وإذن ، فما كان جحود اليهود والنصارى لنبوة محمد ﷺ إلا بغياً وحسداً ، فاستحقوا اللعنة على كفرهم ، وللكافرين عذاب مهين ، : ﴿ **ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين * بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءُو بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين** ﴾ [البقرة ٨٩ ـ ٩٠] .

علاقة الإسلام بالأديان الأخرى :

عرفنا فيما سبق أن الإسلام بمعناه العام هو دين الأنبياء جميعاً ، عليهم الصلاة والسلام ، فإذا أخذنا كلمة الإسلام بهذا المعنى « نجدها لا تدع مجالاً للسؤال عن العلاقة بين الإسلام وبين سائر الأديان السماوية ، إذ لا يُسأل عن العلاقة بين الشيء ونفسه ، فهنا وحدة لا انقسام فيها ولا اثنينية » .

ولكن السؤال هنا عن الإسلام بمعناه الخاص ، وهو الدين الذي

---

(١) عن تفسير المنار للسيد محمد رشيد رضا ٩/٢٨١ ، وانظر تقديمه للطبعة العربية من إنجيل برنابا ، ترجمة خليل سعادة . وقد أشار الأستاذ محمد قطب ـ حفظه الله ـ إلى خبر نشر في جريدة الأهرام المصرية في عام ١٣٦٥ هـ/١٩٤٥ م يقول الخبر : « عثر في دير سانت كاترين بسيناء على نسخة قديمة من التوراة جاء فيها ذكر محمد عليه الصلاة والسلام » . ثم اختفت هذه النسخة ولم تعد مرة أخرى إلى الظهور .

أنزله الله تعالى على محمد ﷺ ، أي العلاقة بين المحمدية وبين الموسوية والمسيحية :

وللإجابة على هذا السؤال ينبغي أن نقسم البحث إلى مرحلتين[١] :

المرحلة الأولى : في علاقة الشريعة المحمدية بالشرائع السماوية السابقة ، وهي في صورتها الأولى لم تبعد عن منبعها ، ولم يتغير فيها شيء بفعل الزمان ولا بيد الإنسان .

وهنا يعلمنا القرآن الكريم : أن كل رسول يرسل ، وكل كتاب ينزل ، قد جاء مصدقاً ومؤكداً لما قبله ، فالإنجيل مصدق ومؤيد للتوراة ، والقرآن مصدق ومؤيد للإنجيل والتوراة ، ولكل ما بين يديه من الكتاب . إذ هناك تشريعات خالدة لا تتبدل ولا تتغير بتغير الأصقاع والأوضاع . وهناك تشريعات أخرى جاءت موقوتة بآجالٍ طويلة أو قصيرة ، فهذه تنتهي بانتهاء وقتها ، وتجيء الشريعة التالية بما هو أوفق وأرفق بالأوضاع الناشئة الطارئة . وقد جاء القرآن الكريم فغيّر الله تعالى فيه بعض الأحكام التي جاءت في التوراة والإنجيل ، وقوفاً بها عند وقتها المناسب وأجلها المقدّر لها في علم الله سبحانه وتعالىٰ ، وما كان فيها من الأحكام صحيحاً موافقاً لقواعد السياسة الدينية لا يغيّره ، بل يدعو إليه ويحث عليه . وما كان سقيماً قد دخله التحريف فإنه يغيره بقدر

---

(١) عن (الدين) للدكتور محمد عبد الله دراز ١٧٥ ـ ١٧٦ ، وعنه لخصنا هذه الفقرة بكاملها ، وهي في أصلها بحث أعده ـ رحمه الله ـ لإلقائه في الندوة العالمية للأديان التي عقدت في لاهور بالباكستان في جمادى الآخرة سنة ١٣٧٧ هـ وانظر في تقويم هذه الندوة ، وندوة أخرى عقدت في أعقابها في كراتشي : ثلاث مقالات للشيخ محمد أبي زهرة في مجلة لواء الإسلام ، السنة الثالثة عشرة .

الحاجة ، وما كان حرياً أن يزاد فإنه يزيده على ما كان في الشرائع السابقة .(١)

وعلى هذا ، فإن الإسلام قد اعترف بالشرائع السابقة كما نزلت على الرسل السابقين ، على أنها شرائع ، وديانات توحيد في الذات والصفات والألوهية ، فالله سبحانه وتعالى واحد أحد ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، وهو المتفرد بالعبادة ، وهو الخالق لكل شيء ، العليم بكل شيء ، السميع البصير اللطيف الخبير ، الموصوف بكل صفات الكمال المنزه عن كل صفات النقص .

فالنصرانية التي اعترف بها القرآن الكريم هي التي تعتبر المسيح عليه السلام عبداً لله ورسولاً من عنده ليس إلٰهاً ولا ابن إلٰه ، وهي التي يقول الله تعالى على لسان نبيها عليه السلام : ﴿ **ما قلت لهم إلاَّ ماأمرتني بهِ أن اعبدوا اللَّه ربِّي وربَّكم وكنتُ عليهم شهيداً مَّادمتُ فيهم فلمَّا توفَّيتني كنتَ أنتَ الرَّقيب عليهم وأنت علىٰ كلِّ شيءٍ شهيد** ﴾(٢) .

والنصرانية التي اعترف بها القرآن الكريم هي التي تبشر كتبها بالنبي محمد ﷺ ، وتطالب الذين حضروا دعوته من بعدها : أن يؤمنوا بها ، كما جاء في القرآن الكريم على لسان المسيح عليه السلام .

واليهودية التي اعترف بها الإسلام هي التي جاء بها موسى عليه السلام ، ديانة توحيد ، تؤمن بالله وباليوم الآخر ، ولا تبيح قتل النبيين ، والتي توجب الإيمان بالكتب التي اشتملت على بيانها الشريعة المطهرة ،

---

(١) حجة الله البالغة للدهلوي ١/٩٠ ـ ٩١ ، و ١٢٢ ـ ١٣٣ .
(٢) سورة المائدة ، الآية [١١٧] .

وتؤمن برسل الله أجمعين . وفيها إيمان بالله تعالى وطاعة له وعبودية خالصة ، وتنزيه للرسل عن المعاصي وعصمتهم من الخطايا .

تلك هي الديانات التي يعترف بها الإسلام ويقرها ويمدحها القرآن الكريم ويمدح معتنقيها ، قبل بعثة محمد عليه الصلاة والسلام ، إذ هي الإسلام الذي أنزله الله . فلما جاءت شريعة محمد كانت هي الرسالة الخاتمة وهي الإسلام الذي ينبغي أن يفيء إليه الجميع ليكونوا مسلمين حقاً .

المرحلة الثانية : أما المرحلة الثانية في بحث العلاقة بين الشريعة المحمدية والشرائع السماوية ، بعد أن طال عليها الأمد ، فنالها من التغيير والتحريف والتبديل والكتمان ما كان كفيلاً بتحويلها عن أصلها من ديانة توحيد إلى ديانات وثنية لا تمت إلى أصلها المنزل إلا بخيط أوهى من خيط العنكبوت أو بنسبة لا حقيقة لها .

وهنا نرى أن القرآن الكريم قد أضاف إلى موقفه منها في المرحلة الأولى صفة أخرى وهو أنه جاء مهيمناً على كتبها وشريعتها ـ وقد سبق ذلك آنفاً ـ أي حارساً وأميناً عليها ، ومن شأنه ألا يكتفي بتأييد ما فيها من حق وخير ، بل عليه ، فوق ذلك ، أن يحميها من الدخيل الذي عساه أن يضاف إليها بغير حق ، وأن يبرز ما تمس إليه من الحقائق التي عساها أن تكون قد أخفيت منها .

وهكذا كان من مهمة القرآن الكريم أن يتحدى من يدّعي وجود تلك الإضافات التي اخترعوها في تلك الكتب : ﴿ **قل فأتوا بالتَّوراة فاتلوهآ إن كنتم صادقين** ﴾[1] .

---

(١) سورة آل عمران ، من الآية [٩٣] .

وبالتالي فالإسلام لا يعترف بدعوة ترفع عيسى عليه السلام إلى مرتبة الألوهية وتنحرف عن التوحيد الخالص لتعتنق التثليث وتؤمن بالخطيئة والكفارة والصلب ... متأثرة بالوثنية التي كانت سائدة وقت نشر النصرانية في الدولة الرومانية[1]، ثم هي تنكر نبوة نبي بعثه الله تعالى وبشرت به كتبها أصلاً ، كما لا يعترف بدعوة يزعم أهلها في حق الله ما يزعمون من كذب وإفك وكفر ، ويصفون أنبياء الله ـ عليهم الصلاة والسلام بما تقشعر منه الأبدان وترتجف له القلوب ـ ومَنْ وصف الله سبحانه بالإفك لا يستغرب منه أي كفر بعد .

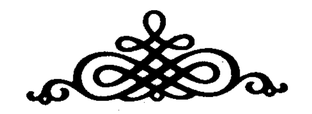
ـ تمت والحمد لله رب العالمين ـ

---

(١) لبيان مدى تأثر النصرانية بالأفكار الوثنية وكيفية تسرب هذه الأفكار إليها وانحراف النصارى عن أصل عقيدة التوحيد راجع بالتفصيل : العلمانية للشيخ سفر بن عبد الرحمن الحوالي ٢٧ ـ ١٢٣ ، المسيحية : نشأتها وتطورها لشارل جنيبر ترجمة د . عبد الحليم محمود ص ١٠١ وما بعدها ، حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر للمهندس أحمد عبد الوهاب ٤١ وما بعدها . وهو كتاب حافل بالنصوص والوثائق من مراجع غربية نصرانية ، محاضرات في النصرانية للشيخ محمد أبي زهرة ٢٩ وما بعدها.مقارنة الأديان : المسيحية للدكتور أحمد شلبي ٩٠ ـ ١٦٠ ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن الندوي ٣٦ ـ ٤٠ .

كتب للمؤلف

١ ـ منهج الإسلام في الحرب والسلام .
٢ ـ التصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان .
٣ ـ عالم الغيب والشهادة في التصور الإسلامي .
٤ ـ إدراك الركعة بإدراك الركوع (بحث مقارن) .
٥ ـ التوحيد مفتاح دعوة الرسل .
٦ ـ الوصية الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية (تحقيق مع الأستاذ النمر) .
٧ ـ تفسير البغوي ١ـ٨ (تحقيق مع الأستاذين النمر والحرش) .
٨ ـ إن الدين عند الله الإسلام .



تحت الطبع

١ ـ خلاف الأمة في العبادات ، لابن تيمية (تقديم وتعليق) .

٢ ـ تزيين العبارة لتحسين الإشارة ، لملا علي القاري (تحقيق) .

٣ ـ إمام الكلام فيما يتعلق بالقراءة خلف الإمام ، للكنوي (تحقيق)

٤ ـ إدراك الركعة بإدراك الركوع (مزيدة وموسعة) .

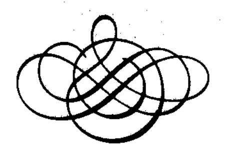
٥ ـ حجة الله البالغة للدهلوي (تحقيق وتخريج) .

٦ ـ تربية المراهق في الإسلام .

٧ ـ رسالتان بين الإمام مالك والليث بن سعد .

٨ ـ شرح الفقه الأكبر لملا علي القاري (تحقيق) .

٩ ـ الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار (تحقيق) .



طبع بالمطبعة الأهلية للأوفست بالطائف
☎ ٧٣٢٦٦٦٠ فاكس ٧٣٣٥٤٦٥